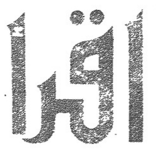


سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

دكتور سعيد عبده

خدعوك فقالوا!

دار المعارف

اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[٣٥٣]

دكتور سعيد عبده

خدعوك فقالوا!

الطبعة الثالثة



دار المعارف

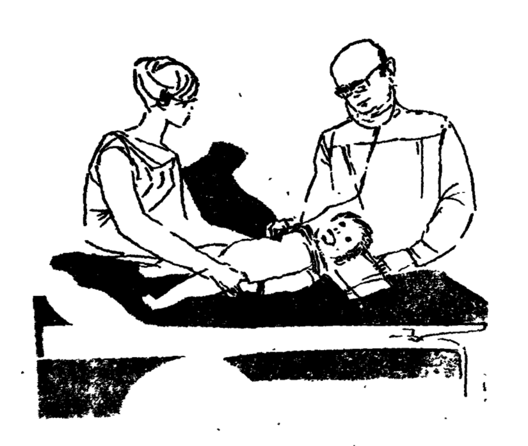
إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا في شيء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هي ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التي نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

البَابُ الأول

فى الطبّ والصحّة



١

خدعوك فقالوا :
إن الطب فن علاج الأمراض !

أفقت من نومى ليلة الثلاثاء ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٦٢ على صوت جهير يجلجل فى الراديو قائلا : « كما أن الهندسة فن البناء ، والطب فن علاج الأمراض ، فإن الأدب فن دراسة الحياة ... » أو شيئاً من هذا القبيل فيما يتعلق بعجز المقال .

وأحسست غصة فى صدرى ، وشعرت أنى أهنت كطبيب ، واستحالت الإهانة إلى لطمة حين عرفت بعد لأى أن المتكلم إنما يروى عن سلامة موسى — المفكر الفذ — آراءه فى الأدب والأديب .

إن هذا التعريف السقيم للطب سقطة لا شك فيها من هذا المفكر الفيلسوف ، فالطبيب يشترك معه فى علاج الأمراض — من وجهة نظر الناس على الأقل — حلاق القرية ، والدجال كاتب الأحجبة والتمائم ، والحاج عبد السلام العطار ، وخالتى الحاجة ست الدار . ولكل منهم فى « فن علاج الأمراض » عملاؤه ومجده ودنياه . ولو قصر الطبيب عمله وفنه وعلمه وجهاده على مجرد علاج الأمراض لما حق له أن ينتظر من الناس أكثر من الحظوة والمكافأة التى ينالهما أمثال هؤلاء الزملاء ! .. هذا إن نال من الحظوة ومن ثقة الناس مثل ما يحظى به أولئك الأدعياء .

ولو صح هذا التعريف السقيم للطب وصح إسناده إلى سلامة موسى لكان حريًّا بالمندسة ألا تكون فنًّا للبناء — كما قال الراوى عن هذا المفكر الكبير — وإنما تكون فنًّا لترميم الجدار المنهار ، وإصلاح « السيفون » العاطل ، وجبر الصنبور المكسور !!

إن الطب فن وعلم يستهدف إطالة العمر ، وتدعيم الكفاية البدنية والعقلية ، وتوفير الانسجام التام مع المجتمع ، والطاقة الكافية للإنتاج ، والمتعة المعقولة بالحياة ، وتوقى الأمراض ، وعلاجها إذا حدثت ... وهذا أضعف الإيمان ! ... فهو علم وفن للبناء أكثر منه علماً وفنًّا للترميم . وهو بهذا المدلول يبدأ حيث يبدأ تعليم الشعب ، ورفع مستوى الدخل القومى ، وتحسين التغذية الشعبية ، والتخطيط الحكيم للأسرة ، وتوفير البيئة الآمنة من الخوف والتعقيد للأطفال ، وتعميم المساكن الصالحة ومياه الشرب النقية والمجارى ، ومكافحة الحشرات الناقلة للأمراض ، والرعاية المنتظمة للأمهات والأطفال والتلاميذ والعمال ، والفحص الطبى الدورى للأصحاء والمرضى على السواء ، للعمل على زيادة الأولين صحة ، والعمل على اكتشاف أمراض الآخرين وهى فى بدايتها حيث تكون أسهل ما تكون علاجاً ، وأحمد ما تكون عاقبة ، وأقل ما يكون علاجها نفقات ، وتوعية الناس لحقوقهم وواجباتهم الصحية ، وطرق الوقاية من الأمراض ، والعادات السيئة التى تعود على عافيتهم وقوتهم بالوبال .

إن دور العلاج فى هذا البرنامج المتكامل الضخم — على أهميته وخطره دور متواضع ، لا يتعالى إلا يوم يخفق الطب فى تحقيق أهدافه

الكبار . . . إنه دور السباك الذى يرمم ويصلح ويجبر ، ولكنه لا يبنى ولا يشيد .

نعم : إن المجتمع فى حاجة إلى المهندس والسباك معاً ؛ ولكن حاجته إلى المهندس أكبر بكل تأكيد !

والمتأمل فى هذا الحصر الشديد الإيجاز — بل القاصر — لوظائف الطب الرشيد يدرك فى الحال أن بناء السد العالى مثلا يصنع للطب فى بلادنا ما لا يستطيع مستشفى قصر العينى أن يفعل عشر معشاره ؛ ولست أبغى التهوين من شأن مستشفى قصر العينى ، أو غمط ما له من حسنات وأفضال . . وإنما أريد الموازنة ليس إلا ؛ بين خير وخير ؛ يكمل كل منهما الآخر ، ولا يستغنى أى منهما عن الآخر . . الموازنة بين طب يبنى ؛ وطب يعكف على ترميم الأطلال !

إن من سوء حظ الطب بهذا المدلول الواسع ؛ أن الأطلال المرممة هى التى تلفت أنظار الناس . أما القصور المشيدة للصحة والقوة والعافية ؛ فهى قصور لا تراها إلا أعين العارفين ؛ وهى ككل تيجان الصحة التى يلبسها الأصحاء فلا يراها إلا المرضى . . إن الطبيب الذى يمحق التيفود فى بيئته . أو يقضى على الدفتريا ؛ أو ينقص إصابات البلهارسيا ، أو وفيات الأطفال الرضع إلى النصف ، لا يذكر له الناس من الفضل ؛ ربع أو عشر ما يذكرونه من فضل طبيب استأصل لفرد منهم زائدة دودية ملتهبة . أو أزال مرارة عاطلة ، أو فرج عنه كرب ألم عنيد ! والأم التى تحمى ولدها من عدوى الجدرى باللقاح الواقى من هذا المرض ؛

قد تفعل ذلك وهى كارهة ، وقلما تدرك أو تذكر أن هذا اللقاح قد وقى ابنها من الموت أو العمى أو التشويه ، الذى كان واحد منها أو أكثر ، حرياً أن يصيبه يوماً ما ، لو وقع فريسة المرض الذى كان قبل إكتشاف هذا اللقاح كالقدر المقدور على أكثر خلق الله . . إن الناس لا يهتمون بضر لم يصبهم أو محنة لم يأخذوا منها بنصيب .

ولعل هذه الضريبة هى أسوأ ضريبة يدفعها الطب الوقائى الاجتماعى الرشيد . . إنه طب فدائى ، أكبر دليل على فدائيته أن مفكراً عظيماً كسلامة موسى ، ينظر إليه نظرة الجهال ، ويقول عنه إنه فن علاج الأمراض !

إنها سقطة لا شك فيها من هذا المفكر الفيلسوف ، والكريم يعثر ، والعصمة لله . . فما عرفت تعريفاً للطب أسقم ولا أضل ولا أتفه من هذا التعريف ، برغم بنوته لهذا الوالد الجليل !



٢

خدعوك فقالوا :

إن الصحة مجرد خدمات

« لا يستطيع أن يستوعب العلم من لا يملك الصحة » .

كذلك قال رئيس الوزراء السابق الدكتور محمود فوزى ، فى حديث له مع الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام .

والصحة التى يتحدث عنها الدكتور فوزى ، ليست هى الصحة بمفهومها السلبى الشائع ، أى مجرد الخلو من الأمراض ، ولكنها الصحة بمدلولها الإيجابى الحديث ، أى تمام الكفاية البدنية والعقلية والاجتماعية ، التى هى الترجمة الأصيلة للعافية ، والقوة ، والطاقة ، والحيوية ، والاتزان العاطفى المكتمل ، والقدرة على حب الناس ، وعلى التعامل معهم ، وعلى المتعة المعقولة بالحياة .

إن هذا النوع من الصحة هو الذى يجعل قدرة المتعلم على التعليم أكبر ، ويجعل قدرة العامل على الإنتاج أكفأ وأشد ، ويجعل خسائرنا القومية الباهظة أقل ، من العجز المبكر للعامل ، وتخلفه المستمر عن عمله ، وضعف تركيزه عليه ، وبالتالى زيادة أخطائه فيه ، ومن إخفاق كثير من التلاميذ غير الأصحاء فى التعليم ، بعد أن تكون الدولة قد أنفقت عليهم ، سدى ، كثيراً من الأموال .

إنه النوع من الصحة القادر على الحد من استهلاكنا المخيف للأدوية ، وهو يبلغ الآن أكثر من خمسين مليوناً من الجنيهات كل عام ، ونقول هل من مزيد !

إنه النوع من الصحة الذى يجعل سرير المستشفى الواحد ، بدلا من أن يستوعب مريضين أو ثلاثة مرضى بأمراض مستعصية على العلاج ، كل عام ، يستوعب خمسين أو مائة مريض ، بأمراض لا تزال فى بدايتها ، سهلة العلاج ، مضمونة الشفاء ، بأقل التكاليف .

لكل مرض قصة

إن الأمراض لا تهبط علينا من السماء ، ولكن كلا منها حصيلة تفاعلات متعددة وطويلة المدى ، بين البيئة والإنسان . .

ثم إن الأمراض ليست حالات ثابتة ، ولكنها عمليات دائمة التطور ، إما إلى أحسن وإما إلى أسوأ وما لم تواجه بدفاع متين من جسم قوى سليم ، وما لم يقطع عليها الطريق قبل حدوثها ، أو فى بدايتها بالاكتشاف المبكر والعلاج السريع فقد تزمن ، وقد تعجز صاحبها عن العمل ، وربما استعصت على كل علاج ، وربما قادت أصحابها ، فى سن مبكرة ، إلى حيث لا يرجع الذاهبون ، بعد تكبد نفقات فى الفحص والعلاج تتحدى أحياناً كل قدرة على التحمل ، سواء من الدولة أو من الأفراد .

بهذين الاعتبارين فى أذهاننا نستطيع أن ندرك قيمة المكاسب التى تعود علينا من ممارسة الطب بقدر أكبر من الروح الوقائية التى تستهدف

تدعيم الصحة كقوة ، وتوقى الأمراض قبل حدوثها ، والعمل على اكتشافها المبكر إذا حدثت حتى يمكن دفع أذاها با علاج السريع .

إن أكثر من تسعين فى المائة من أمراضنا قابل للعلاج المثمر الحاسم السريع إذا أدركناها فى أوائلها قبل أن تستفحل ، وتزمن ، وتستعصى على العلاج . .

حتى السل ، حتى السكر ، حتى السرطان ، حتى الشيخوخة المبكرة . . كلها تخضع خضوعاً سحرياً للاكتشاف المبكر والعلاج الحاسم السريع . . كلها تستجيب فى بدايتها للعلاج ، ربما دون حاجة للإقامة فى المستشفى ، وربما دون حاجة لأى تعطل عن العمل ، ودائماً دون حاجة للضلال الأعمى فى متاهة المضاعفات والأدوية والعقاقير .

خدمات .. وإنتاج

إن الفارق بين هذا الطب الوقائى فى هذه المستويات الثلاثة المثمرة : تدعيم الصحة ، وتوقى المرض ، واكتشافه فى بدايته ، وطرده بالعلاج السريع . . . وبين الطب العلاجى الشائع فى بلادنا ، هو نفس الفارق الذى عناه الدكتور فوزى حين قال فى حديثه : « لا يجوز أن ننظر إلى الصحة على أنها خدمات ، ولكن يجب أن ننظر إليها كإنتاج للتقدم » .

إنه الفارق بين البحث عن الأمراض ، وبين انتظارها حتى تستفحل ، وتزمن وتستعصى على العلاج ، وربما تقود أصحابها إلى المستشفيات ، وهم يلفظون النفس الأخير . .

إن هذا النوع من الطب العلاجي الشائع فى بلادنا ، طب انتظار المرضى حتى يأتوا إلينا من تلقاء أنفسهم ، طب ورثناه عن عهود الاستعمار ، ولم نستطع التحرر من نيره حتى الآن . .

الغزل الطبى المحرم

يومئذ كان هم المستعمر كله مغازلة عواطف المرضى ، بتخفيف ألم المتألم ، وتفريج كرب المكروب ، وكان يتلقى عن ذلك دعوات الشكر والامتنان ، ويضمن فى الوقت نفسه الرواج لسوق الدواء فى بلاده ، كما يضمن ترك الأمراض ترعى فى البيئة ، فيعجز الشعب عن التفكير فى النهوض أو الحرية أو الاستقلال .

وتوارثنا هذا النوع من طب الخدمات والاستهلاك جيلا عن جيل ، كل جيل يسلم الراية السوداء إلى الجيل الذى يليه ، وكل لائحة من لوائح كليات الطب تسلم بدوره التعسة إلى اللائحة التى تخلفها ، بكل تمنياتها الطيبة ، وبكل ما تملك من راحة البال ، وهدوء الضمير .

درهم الوقاية

إنها محنة من محن التعليم الطبى فى بلادنا ليس المسئول عنها الأطباء ، بمقدار ما يسأل عنها المخططون للتعليم الطبى ، الذين قضوا فى مناهج هذا التعليم على كل أمل فى غرس الروح الوقائية فى طالب الطب منذ بداية دراسته ، حتى منتهاها ، وغرسوا بدلا منها فكرة الطب كمجرد

علاج . مجرد خدمات ، مجرد سماعة وقارورة دواء . . كنوع من التعامل المادى مع المرضى ، أكثر من التعامل الروحى مع الأصحاء .

والطبيب الذى ينشأ على هذه الفلسفة معذور إذا هو لم يعرف كيف يسهم فى الصحة للإنتاج . . إن فاقد الشىء لا يعطيه !

ولقد كان للطب الوقائى ركن متواضع فى مناهج التعليم الطبى ، ولكنه كان على الدوام ، كدرهم من الوقاية ، تائه فى قنطار من العلاج !

الذئاب تتلمظ !

ومن أعجب العجب أنه حتى هذا الدرهم الوقائى التعس بدأ عمالقة الطب العلاجى التقليدى ، وهم بحكم العدد والمنزلة ، سادة هذا التعليم وطغاته ، بدءوا — فى اللائحة الجديدة لتطوير التعليم الطبى — يتلمظون تلمظ الذئاب لالتهامه . . فإن لم يستطيعوا . فلقص أجنحته ، ونتف الريش من حواشيه ، وجعله مجرد « مادة » من المواد التى يتلقاها طالب الطب ، بعد أن تكون فكرة العلاج والدواء قد غرست فى ذهنه ، وأينعت ، وبسطت ظلها الظليل .

من أين الوقت ؟

إننا ندعو إلى إعادة النظر فى هذه اللائحة الجديدة ، بقصد تطويعها لغرس الروح الوقائية فى ذهن طالب الطب من أول يوم فى دراسته الطبية ، إلى آخر يوم فيها . وتدريبه على ممارسة الطب الوقائى

فى المجتمع ، بالإقامة الكاملة شهراً – على الأقل – بين الناس يتعامل معهم ، ويبحث معهم مشاكلهم ، وطرق حلها ، فى مرحلة من دراسته ، يكون فيها قادراً على فهم هذه المشاكل وعلى ممارسة هذا النوع من التعامل مع الناس .

إن الوقت الذى يخصص لهذه الأهداف فى التعليم الطبى يجب أن يقتطع بسخاء من الوقت المخصص حاليا لتفقيه طالب الطب فى ألوان من المرض فى الطب والجراحة ، قد لا يقدر له أن يراها طول حياته ، أو يتعامل معها بأى حال من الأحوال .

ممارس عام

إن المطلوب من كليات الطب أن تخرج لنا ممارساً عاماً ، يمارس الطب بفلسفته الحديثة ، ويعرف عن المجتمع ، وعن الصحة بمفهومها الإيجابى أكثر مما يعرف عن نادر الأمراض .

إن عدد الأمراض التى يتعامل معها الطبيب فى المجتمع هو بالتأكيد أقل من خمس عدد الأمراض التى يتحتم عليه فى دراسته الحاضرة أن يصول فيها ويجول !

ولعلنا – على ضوء دعوة الدكتور فوزى – نستطيع أن نشكل لائحة التعليم الطبى الجديدة ، بحيث ينال الطالب من دراسته شيئاً أغلى وأحسن من هذا الفتات الذى يتركه له سادة التعليم الطبى وطغاته ... الأطباء العلاجيون .

وبهذا وحده نستطيع أن نحقق أمل الدكتور فوزى . . « إن أنفع استثمار للمستقبل هو الاستثمار فى الإنسان ، والاستثمار فى الإنسان مستحيل بغير التعليم والصحة » .



٣

خدعوك فقالوا :
إن واجب الطبيب ينحصر فى علاج مرضاه

علاج الطبيب للمرضى فى المستشفى أو فى الوحدة الصحية أو فى عيادته الخاصة هو من أهداف الطب المتعددة . ولكنه أدنى هذه الأهداف قيمة وأهونها شأناً وأقلها ثمراً وأكثرها نفقات. إن المرضى – ومرضانا بنوع خاص – بحكم العلاقات المريبة منذ غابر الأزمان بينهم وبين الأطباء قلّما يقصدون الطبيب إلا بعد أن يستنفدوا كل وسائل العلاج الأخرى من طب الإعلانات إلى الوصفات الشعبية ، إلى التبرك بالأولياء إلى الخرافات الراسخة الجذور فى نفوسهم بحكم العرف والعادات والتقاليد ، وحين يدب اليأس فى نفوسهم يقصدون الطبيب كملاذ أخير بعد أن يكون الداء قد تمكن وأزمن ، وربما استعصى على العلاج ، وبدأ سرير المستشفى يفتح ذراعيه لاستقبال ضيف مقرر المصير !

بين القرش و ... الجنيه

إن المرض عملية متطورة تتقدم تقدماً حثيثاً بالإهمال وتتقهقر أمام التدخل الرشيد . والمرض الذى يعالج فى بداية أمره بقرش ويشفى يتطلب علاجه حين يزمن مئات الجنيهات ، ولا تشفى منه إلا الأعراض . لذلك أصبح الطابع الملحوظ للطب العلاجى الحديث فى كثير من البلاد

المتحضرة ، هو طابع البحث عن الأمراض بين الأصحاء لاكتشاف ما يعانون من أمراض لم تعلن عن نفسها بعد ، أو أعلنت عن نفسها ولكن بمثل صراخ الطفل الوليد ، وتعقب هذه الأمراض بالعلاج السريع ، ثم إعادة فحصهم دوريًا بقدر ما لدى الطبيب من الوقت والإمكان . . .

مانعة صواعق

إن هذه السياسة الطبية الحديثة تمنع كثيراً من المآسى ، وتلطف كثيراً من الكوارث ، وتوفر كثيراً من أسرة المستشفيات ، وتحول بين أنفسنا وبين سفاهاتها الحالية فى استعمال الدواء . إنها باختصار مانعة صواعق ! لقد جربناها بنجاح كبير فى مراكز رعاية الأمومة والطفولة حيث يفحص الحوامل والأمهات والأطفال دوريًا وتعالج أمراضهم قبل أن يحسوا لها بأعراض . . . وجربناها ونجحنا نجاحاً ملحوظاً فى حرب الدرن والأمراض التناسلية حيث يفحص عن هذه الأمراض على نطاق واسع ، فإذا اكتشف مريض لم يقتصر أمر العلاج عليه ، ولكن يتعداه إلى مخالطيه فى البيت ، وربما فى مكان العمل للعثور على مصدر عدواه من جانب ، واكتشاف الحالات المبكرة من المرض بين هؤلاء « الأصحاء » من جانب آخر ليعالجوا فى وقت يكون العلاج فيه أضمن وأنفع ما يكون . ولقد بدأنا نجرب استعمال مانعة الصواعق هذه فى المصانع بين العمال ، وفى المدارس بين التلاميذ ، وفى الوحدات الصحية الريفية ،

ولكن ما زال بيننا وبين النجاح الساحق فى هذه الميادين شوط طويل .

جهد الثور

إن الألوف من أبنائنا طلاب الطب القدامى منهم ، والجدد الذين يقبلون فى كلياتنا الطبية كل عام ، خليقون أن يتعلموا منذ اليوم وفى كل يوم ، أن جلوس الطبيب فى مقره انتظاراً للمرضى الذين يأتون إليه ، إن جاز للطبيب الممارس فى عيادته فهيهات أن يجوز لأطباء المؤسسات الصحية الذين يكون انتظارهم للمرضى دون البحث عنهم انتظاراً مفجعاً للمرضى أنفسهم ، وللصحة العامة ، ولميزانية الدولة ، ولأرصدتنا من الدواء . ومالى أستثنى الممارس الخاص من واجب الانتفاع بمانعة الصواعق وهو يتعامل مع مرضى لكل منهم أسرة يعيش أفرادها مع المريض فى البيئة نفسها ، وفى الظروف نفسها ، وكثيراً ما يصابون بالأمراض عينها . ومن حق مريضه عليه أن يسأل ، ولو مجرد السؤال على الأقل ، عن هؤلاء الأفراد وإلا أصبح جهده فى علاج المريض كجهد الثور الدائر فى ساقية خربة يرفع الماء من جانب ليعود الماء من الجانب الآخر إلى حيث كان .

تطور الإسكاف

إننا نسمع كثيراً عن تطوير التعليم الجامعى وتطوير التعليم الطبى بنوع خاص ، وكل ما نرجوه ألا يكون تطويراً شكلياً كذلك الذى رواه أحد

كبار الأدباء عن إسكاف أراد أن يتطور فكتب على محله « طبيب أحذية! »
إن الذى نريده من تطوير التعليم الطبى أن يشمل تغيير الجلد والصنعة والأدوات والأهداف لاتغيير اللافتات والأسماء . نريد تعليماً طبيًّا يعطينا أطباء لا يتعاملون مع أسرة مستشفياته ، ولكن يتعاملون مع مجتمع ، ومع مرضى من الناس وراء كل منهم بيئة مسيطرة ، وأسرة ولكل منهم حاجات ومصالح وفوق كتفى كل منهم هموم وأحمال . . .
نريد أطباء لا يتعاملون مع المرضى بقدر تعاملهم مع الأصحاء . والله تعالى قادر أن يعطينا ما نريد .



٤

خدعوك فقالوا :

إن التمريض فى مستشفياتنا يتقدم !

إما أن الخامة التى تصنع منها الممرضة الصالحة لا توجد فى تربة بلادنا بقدر كبير ، وإما أن الخامة موجودة — وهذا هو الأرجح — ولكن تصنيعها يحتاج لتخطيط جديد .

والذى أعنيه بالتصنيع هو اختيار الخامة الطيبة ، وإعدادها الوافى وتدريبها الدءوب ، إلى الحد الذى يعينها على أن تقوم على الوجه الأكمل ، بأداء وظيفتها الإنسانية النبيلة التى نسميها التمريض .

إن الطب بغير التمريض الصالح يصبح كالشجر المثمر الذى يضيع ثمره هباء .

ثلاثة عهود

لقد حاصرت فى حياتى ثلاثة عهود للتمريض . بدأ العهد الأول منها فى أوائل هذا القرن حين كانت فى بلادنا مدرسة واحدة للتمريض ، مركزها مستشفى قصر العينى القديم ، وكانت تشرف عليها ناظرة أجنبية يساعدها عدد من الممرضات الأجنبيات . وكانت طالبات المدرسة

يخترن من بين المتقدمات على يد لجنة ، كان من بين أعضائها أستاذ معمم من أساتذة دار العلوم كانت معاييره فى الاختيار « الشكل المقبول ، والوجه الباسم ، واللفظ الحلو ، فى غير ميوعة ولاسوقية ولا ابتذال» وهى الأشياء التى فقدنا كثيراً منها فى طالبات مدارس التمريض فى الوقت الحاضر ، حيث تختار الطالبات بمجموع الدرجات !

وكانت الشهادة الابتدائية التى تعد المؤهل الثقافى لدخول هذه المدرسة ، تحصل عليها الفتاة فى سن الخامسة عشرة أو حول ذلك ، فإذا قبلت فى مدرسة التمريض فى السابعة عشرة دخلتها ومعلوماتها ما زالت غضة لم ينلها ذبول .

وكان تليمذات المدرسة فى ذلك الحين يخضعن لتدريب محكم عنيف ، تحت أعين لا تغفل ، وأيد تخفى تحت قفازاتها الحريرية صلابة الحديد .

وفى هذا العهد كانت الممرضة الأجنبية تمر بالمرضى ثلاث مرات فى اليوم ، تسأل معظم المرضى عما إذا كانوا أخذوا الدواء ، وسجلت لهم الحرارة ، وعما إذا كان أحدهم يشكو من تقصير ، والويل للممرضة — أو تليمذة التمريض — التى كان يثبت عليها إهمال فى أداء ما عليها من واجبات . . ولقد رأيت فى ذلك العهد ممرضة تفصل من المدرسة لتقصيرها مرتين متواليتين فى القيام بكافة التزاماتها نحو مريضة عاجزة فى السرير .

الرعيل الأول

لقد تخرج فى هذه المدرسة جيل عظيم من الممرضات ، يؤلفن العهد الثانى من العهود الثلاثة ، الذى يبدأ فى أواخر العشرينات أو حول ذلك ، وامتد حتى أواخر الأربعينات ، بعد خروج الممرضات الأجنبيات من البلاد .

لقد أفاد هذا الجيل من الممرضات ، الجيل الذى تلاه كثيراً ، ومارس بالروح نفسه تدريب الممرضات ، وإن كانت قبضتهن بدأت تتراخى ، وبدأ الأطباء والمرضى يتذمرون من التمريض ، وبدأت تدب فى المدرسة روح الاضمحلال تحت عدة اعتبارات . .

وكان من هذه الاعتبارات بدء انتشار التعليم العام ، والحصول على الشهادة الابتدائية فى سن مبكرة ، مما جعل كثيرات من خريجات هذه الشهادة يحصلن عليها فى العاشرة أو الحادية عشرة ، ثم تمضى البنت ست سنوات فى الحارة حتى تصل إلى السابعة عشرة ، فإذا ذهبت بعد ذلك إلى مدرسة التمريض ، ذهبت إليها فى الأغلب بعقلية الحارة ، وبعد أن تكون قد نسيت ما تلقته من ثقافة ، أو أفادته من تعليم .

والاعتبار الثانى هو البدء فى الأخذ بمبدأ اختيار الطالبات على أساس مجموع الدرجات ، دون نظر إلى شخصياتهن ، وما إذا كان من الممكن أن يكون لهن أى مستقبل فى مهنة التمريض ، أى بدون اعتبار للخامة التى صنعن منها ، والتى لها الأهمية الكبرى فى مهنة التمريض .

وساعد على تفخيم هذا الاعتبار ضعف المرتبات التي كانت الممرضة تحصل عليها فى ذلك الحين ، مما جعل كثيرات من الخامات الطيبة تنصرف عن مدرسة التمريض .

وكان الاعتبار الثالث هو بداية ظهور الضعف واللامبالاة فى الإشراف على تدريب الطالبات ، ولا سيما بعد التوسع الهائل الحديث فى إنشاء المستشفيات ، وازدياد الحاجة إلى أعداد ضخمة من الممرضات ، والاضطرار إلى إنشاء مدارس متعددة للتمريض فى مختلف كليات الطب بالجامعات الجديدة من جانب ، ثم فى المستشفيات الكبرى بوزارة الصحة من جانب آخر ، بدون أن يكون لدينا العدد الكافى من المدرسات والمدربات الصالحات .

ولقد أقمت فى مستشفى قصر العينى فى ذلك العهد ، مريضاً بضعة أشهر متوالية ، وكانت رعايتى موكولة إلى ممرضة مفروض أنها كانت من أحسن الممرضات ، فكانت تترك هذه الرعاية إلى عوادى وزوارى ، وتقضى معظم وقتها تغازل طبيباً من الأطباء فى شرفة قريبة ، وقد أصبح الطبيب اليوم من كبار الأطباء ، ودفعت هى ثمن طيشها المبكر ، وقلة الرقابة عليها ، ضياعاً فى مجاهل النسيان .

الموقف الآن

وجاء العهد الثالث من عهود التمريض الثلاثة منذ أواخر الأربعينات ، وتميز هذا العهد بجعل الشهادة الإعدادية هى المؤهل الأدنى لقبول

الطالبات فى مدارس التمريض ، وعلى الرغم من أن هذا المؤهل قد ساعد كثيراً على تحسين المستوى الثقافى العام للممرضة إلا أنه لم يعوض قط عن تفاهة الخامة فى كثير من الأحيان ، ولا عن ضعف مستوى التدريب فى كافة الأحوال .

ولقد أتيح لى حديثاً أنَ أقضى حوالى شهرين فى أحد مستشفياتنا الكبرى التى نستطيع أن نفخر بمن فيه من صفوة الأطباء ، ومن أحدث أجهزة التشخيص والعلاج ، ولكنى أحاول أن أفخر بمستوى التمريض فيه — كما كان المأمول — وخصوصاً بعد أن طعم هذا التمريض بخريجات المعهد العالى للتمريض ، فيراوغنى الفخر بلؤم ، ويفر من يدى فراره من مجذوم !

نعم إنى رأيت فى هذه المحنة ممرضات كثيرات ، جديرات بنبل الرسالة التى يؤدينها فى المستشفى ، ولكن جدارتهن مستمدة لسوء الحظ من خاماتهن الطيبة أكثر مما هى مستمدة من حسن الإعداد والتدريب .. على أن بجوارهن أخريات يستنكفن مثلا من مساعدة المريض العاجز على أداء ضروراته ، أو يقضين معظم أوقاتهن على جهاز التليفون يحدثن بعضهن البعض فى حين أن أجراس حجرات المرضى تدق بلا جواب ، أو ينمن نوماً والمفروض أنهن ساهرات .

عودة إلى النظام القديم

إن الحالة التى وصل إليها التمريض لا يمكن أن تصلح بغير العودة

إلى النظام القديم فى الإشراف المحكم على تدريب الممرضات ، ولو على أيدى مدربات أجنبيات ، يدربنهن بالأيدى الحديدية المغطاة بقفازات الحرير .

ومن يك حازماً . . فليقس أحياناً على من يرحم !

إن خريجات المعهد العالى للتمريض اللاتى كن نرجوهن لهذا الإشراف المحكم قد تعلمن كثيراً ، ولكن تدريبهن على الإشراف كان أقل وأضعف من أن يمنحهن أكثر مؤهلات الإشراف . . إنه أعطاهن قفازات الحرير ، ولكنه بكل أسف لم يعطهن شيئاً من صلابة الحديد !

إنهن حقيقة :

يخطرن فى حلل الدمقس عرائساً

ويهمن فى فلك الجمال بدورا

وهذا شيء جميل بطبيعة الحال ، ولكنه ليس كل شيء فى التمريض ، أو فى الإشراف على التمريض ! !

أمل

إننا نطمع فى عهد جديد رابع للتمريض – نحس فيه ممرضاتنا أنهن أمهات ، بكل ما فى كلمة الأم من مضمون . . فما من أم تهمل صرخة طفلها العاجز إلا أن تكون غير جديرة بحمل لقب الأمومة العظيم .

خدعوك فقالوا :

إن العلم هو كل شىء فى نجاح الطبيب

الكلمة الطيبة، والفم الباسم واللسان المتفائل ، والعلم ، والاطلاع ، والتجربة . . هى الخامات الجوهرية التى تصنع منها شهرة الطبيب . .

ولكن هذه الخامات وحدها لا تكفى، إذا لم يظاهرها « الحظ » الذى هو الدلال الأول لهذه الشهرة فى سوق الحياة . .

إن الحظ هو « البشاورة» التى تمسح أخطاء الطبيب . .

وهو العائق غير المنظور الذى يحول بينه وبين عيادة مريض يلفظ نفسه الأخير . .

وهو البلسم الإلهى الذى يجعل « سبرات الصودا» فى يده آلة للشفاء !!

إنه هو وحده القادر على أن ينفخ فى شهرة الطبيب فتملأ الآفاق .

أو يضائل من شأنها حتى تنحصر تحت سقف دكان !!

والذين يصلون إلى القمة من بين الأطباء كثيراً ما يكفرون بالحظ ونعمته ، وكثيراً ما يزعمون أن البيض الذهبى الذى كانوا يعثرون عليه فى الطريق هو بيض العلم والمعرفة والاجتهاد، ولكن العلم والمعرفة والاجتهاد قلما تبيض الذهب — ولا سيما فى الطب الذى لا يزال يضرب فى تيه من المجاهل حتى الآن — ثم إن الحظ قلما تخفى « قوقأته» وهو يبيض !!

ولقد لعب الحظ معى أنا بالذات لعبة سمجة، لو جاءت فى وقتها لطفرت بى فى سلم الشهرة عشر درجات ، وبداية السلم هى أشق ما فيه ، فإن سلم الشهرة تنبسط درجاته كثيراً كلما اتجهنا إلى أعاليه .

كنت يومئذ أطلب الطب فى سنواته الأخيرة ، وأتيح لى أن أشهد حالة مريضة من ذوى قرباى ، اختلف فى تشخيص مرضها الدكتور فيليب والدكتور سليمان عزمى (باشا) ، وكانا أستاذى الأمراض الباطنية فى قصر العينى ، وأشهر أطباء مصر فى ذلك الحين ، فرجح عزمى (باشا) سرطان الكبد ، ورجح الدكتور فيليب حصوات المرارة ، واتفقا معاً على أن يعطيا المريضة فائدة الشك ، فيصفا لها أدوية لحصوات المرارة مع المورفين . .

ولم يغن الدواء ، ووافى المريضة أجلها المحتوم .

ومرت أشهر ، وجاءنى ذات يوم صديق من أصدقائى يسألنى أن أعطى شقيقته حقنة مورفين ، وقال لى فى الطريق : إن ثلاثة من كبار الجراحين قد شخصوا مرضها سرطاناً فى الكبد ، ويئسوا من شفائها ، فوصفوا لها المورفين دفعاً لآلام السرطان .

ولم تكد عينى تقع على المريضة حتى تذكرت فى الحال قريبتى المتوفاة ، فقد كانت الصورتان أشبه ما تكون إحداهما بالأخرى ، من حيث النحول البادى ، والاصفرار فى الوجه والعيون ، والألم المستبد بالتقاطيع .

وفيما أنا أعقم المحقن ، دارت فى خيالى المناقشة التى سمعتها بين عزمى (باشا) والدكتور فيليب منذ بضعة أشهر ، وقلت لنفسى مادام سرطان

الكبد يلتبس بحصوات المرارة حتى فى أعين هذين العلمين من أعلام الطب ، فلماذا لا تعطى هذه المريضة أيضاً فائدة الشك ، وتعالج من الحصوات ؟؟

واستبدت بى الفكرة ، فتوقحت وقاحة الطالب الناشئ ، وقلت لصديقى : ألم يصف الجراحون لشقيقتك غير المورفين ؟

قال كلا . .

قلت : إن شيئاً ما يقول لى إن المرض حصوات فى المرارة ، فلم لا نحاول علاجها من هذه الحصوات ؟!

ووجدت ترحيباً بالفكرة شعرت معه بالزهو والغرور . .

وكتبت لصديقى الدواء نفسه الذى وصفه يوماً ما عزمى (باشا) والدكتور فيليب للمريضة المتوفاة ، وبحماسة الطالب الناشئ ، زدت جرعة الدواء حتى وصلت بها إلى أقصى ما يمكن أن تكون ، تعجيلا لظهور النتيجة ، إن كان ثمة أمل فى الشفاء ! !

وعدت إلى بيتى فوجدت ضميرى هناك كالعمل السيئ ، جالساً القرفصاء ، متحفزاً للنضال ! !

قال لى ضميرى : مالك أنت وممارسة الطب وأنت بعد تلميذ ؟ !

وما الذى يحدث إذا لم تتحمل المريضة الدواء فقضت نحبها بعد احتساء أول فنجان ؟ !

ومن أنت حتى تضاعف جرعة دواء وصفه أساطين الأطباء ؟ !

وحاولت جهدى أن أقنع ضميرى بأنى أردت الخير ولا شىء سواه ، وأن المريضة ميتة ميتة ، إن لم يقتلها الدواء قتلها السرطان ! . .

ولكن ضميرى لم يقتنع ، وراح يهول لى الأمر ، ويتهمنى بالإجرام ، ويرسم لى صورة مظلمة من حياة السجون ، ويلح على أن أعود إلى صديقى ، فأعترف له بحماقتى ، وأدفع له ثمن الدواء ، وأحطم قواريره قبل أن يبلغ الشر مداه . .

وظللت طول الليل أتلقى من ضميرى هذه اللطمات ، وألعن نفسى على هذا التطفل الممقوت ، ولكن ضوء الصبح لم يكد يسفر حتى كان ضميرى قد أضناه التعب فنام ، تاركاً لى مرارة السهد ، وقسوة القلق مما خشيت أن يكون . .

واتخذت أول قطار إلى الإسكندرية ، وقلت أمتع نفسى قليلا ، وليكن بعد ذلك ما يكون . .

ورحت أشترى الصحف كل يوم ، صباحية ومسائية ، حزبية ومستقلة ، بلا استثناء ، فلا أقرأ فيها إلا ركن الوفيات ، متوقعاً أن أقرأ نعى المريضة ، وأسلم نفسى فوراً لأقرب مركز للبوليس ! !

ولكن الأيام مرت دون جديد ، وانتهت إجازتى الصيفية بعد ثلاثة أسابيع ، فعدت إلى القاهرة ، وكان أول ما خطر ببالى أن أمر بمسرح الجريمة لعلى أجد هناك ما لم أجد فى أنهر الوفيات . .

بيد أن بيت صديقى كان مستغرقاً فى الهدوء والسكون . .

بل إن قبساً من الأمل بدا لى عندما رأيت زوج المريضة ، خارجاً من البيت ، وليست على وجهه سمة من سمات الحزن ، ولا فى ملابسه أية شارة للحداد . .

وأعطيت نفسى إجازة فى هذه الليلة من قراءة الوفيات ، ورحت وأنا مضطجع فى سريرى أقرأ الصحف لأول مرة كما يقرؤها عباد الله . .

وفجأة دق جرس الباب ، فجفلت من مضجعى مذعوراً لغير سبب إلا توقع الشر المجهول . .

ووجدت بالباب صديقى . . ولكن فى غير ماقدرت أن أراه .

كان متهلل الوجه بالبشر . .

وفوق ذلك فقد تجاهل يدى الممدوة ، واحتوانى فى حضنه المفتوح ! !

لقد فعل الدواء بشقيقته فعل السحر فى عشرة أيام ! !

منذ ذلك اليوم أدركت أن شهرة الطبيب ليست دائماً بنت العلم والمعرفة والاجتهاد . .

ومنذ ذلك اليوم أخذت أفر من صديقى ومن المرضى الذين كان يرسلهم إلى حتى عندما نقل . . إلى العريش !!

وعندما تخرجت فى كلية الطب ، أخذت أبحث عن بيض الحظ الذهبى فى طريقى . . ولكن الدجاجة الملعونة — بعد أن أصبحت فى أمس الحاجة إلى بيضها — أخذت « تقوق » عندى ، وتبيض عند الآخرين .



البابُ الثانى

فى الجسم الإنسانى



٦

خدعوك فقالوا :

إن الإنسان مخلوق كامل !

ليس أبعد من جسم الكائن البشرى عن الكمال . .

فى كل عام يموت ألوف من الأجنة فى بطون أمهاتهم ، ويموت ألوف من الأطفال فى المهد ، لأن قوانين النمو ليست بلا أخطاء . . .

ادخل أى متحف من متاحف الطب تجد مئات من هذه الأخطاء على شكل ممسوخ لم يستقم تكوينها مع الحياة .

وادخل أى غرفة للتشريح تجد أعضاء موضوعة فى غير موضعها ، أو زوائد فى جسم ما لا يوجد لها أشباه فى سواه .

بل افتح عينيك وأنت سائر تصادف مئات من العيوب البدنية فى الطريق . . . هذا « أعلم » وهذا « أشرم » ، وهذا له أصبع سادسة فى يده أو قدمه ، وكلها هى وأمثالها أخطاء فى التكوين .

وليست ظاهرة التوائم إلا خطأ من هذه الأخطاء ، فإن القانون العام أن تبيض الأنثى فى كل شهر من شهور خصبها بيضة واحدة ، يلقحها حيوان منوى واحد ، فيكون إنساناً ، فإذا باضت الأنثى أكثر من بويضة ، ومنيت كلها بالإخصاب ، انتهت كل بويضة إلى جنين .

وإذا باضت بويضة واحدة أخصبها أكثر من حيوان منوى واحد ، كانت النتيجة التوائم الأشباه . .

وتحت هذا الخطأ العام قد توجه أخطاء جزئية ، فإن التوءمين بدلا من أن يولدا منفصلين ، يولدان وبينهما وشيجة من اللحم والدم ، والاشتراك فى بعض الأنسجة أو الأحشاء . .

وقد يذهب هذا الخطأ إلى آخر مداه فيولد أحد التوءمين حياً ، يحمل فى عضو من أعضائه قبراً يثوى فيه رفات أخيه ! . . وثمة أمثلة عديدة لمثل هؤلاء التوائم يكتشفها الطبيب على شكل أورام فى جسم التوءم الحى تسمى أورام « التيراتوما » وقد تستحيل هذه الأورام إلى سرطان من أخبث أنواع السرطان ينتقم فيها قابيل الميت من هابيل الحى ، لحرمانه إياه من الحياة . .

وكثيراً ما تستأصل هذه الأورام دفعاً لشرها فتوجد فيها عجائب ، فمن أظافر بشرية ، إلى أصابع ، إلى يد كاملة ، إلى فك وافى الأسنان إلى خصلة من الشعر ، إلى عظمة من هنا أو هناك ، إلى قلب لم يعرف الخفقان ، إلى عضو كامل من أعضاء جسم الإنسان !! . .

وما أكثر النكت التى يسخر فيها الخالق من حقارة المخلوق ! ! . .



٧

خدعوك فقالوا :
إن الإنسان تحدر من أصلاب القرود

إن تشارلس داروين – الوالد الروحى لعلم أصل الأنواع – لم يقل قط « إن أصل الإنسان قرد » ، ولكن خصومه – وكانوا فى وقته كثيرين – هم الذين وجهوا إليه هذا الاتهام جهلا بتعاليمه ونكاية فيه . وكان أشد خصوم داروين لجاجة فى خصومته واحداً من كبار رجال الإكليروس فى زمنه هو المطران ويلبرفورس ، وكان خطيباً لايشق له غبار وإن كانت فصاحته كما وصفها أحد معاصريه ، من نوع فصاحة الطبل الأجوف ، القليل الجدوى والعالى الطنين . انتهز هذا المطران فرصة اجتماع أقامته الجمعية البريطانية سنة ١٨٦٠ فى أكسفورد لتستمع لمحاضرة عالم أمريكى عن « التطور العقلى لأوربا على ضوء نظرية داروين » ، فاختار أن يجعل هذا الاجتماع ميداناً لمعركته الكبرى مع هذه النظرية ومن كسبت من أنصار .

وظهر منذ البداية أن المستمعين السبعمائة الذين اكتظوا فى قاعة الاجتماع ، ومن بينهم رهط كبير من رجال الإكليروس ، وعدد طيب من الطلاب ومن نساء المجتمع ، إنما جاءوا للاستماع للمطران وللاشتراك فى تشييع جنازة داروين ، الذى وعد المطران أن « يبحث

نظريته من جذورها ، وأن يمحو اسمه من قائمة الوجود . ولم يكن داروين نفسه موجوداً ، فقد كان رجلا معتل الصحة على الدوام « برغم أنه عاش ٧٤ سنة ، من ١٨٠٨ إلى ١٨٨٢ » ، وكان يعاف المجتمعات إلا أن صديقه وزميله وتلميذه الدكتور هكسلى كان هناك .

وبعد نصف ساعة من الكلام الفصيح والمغازلات المتبادلة بين جمهور المستمعين والمطران الخطيب ، الذى كان مجلسه على المنصة بين الضيف الأمريكى وبين رئيس الاجتماع اختتم المطران هجومه قائلا فى نغمة هادئة ، وابتسامة ساخرة : « إن نظرية التطور نظرية لا أصل لها ولا أساس ، فالصقر لم يكن إلا صقراً منذ خلق ، والحمامة لم تكن إلا حمامة منذ بدأ الله الأكوان » .

ثم التفت إلى هكسلى قائلا وفى عينيه نظرة زاخرة بالتهكم ، وبين شفتيه ابتسامة كبيرة مصطبغة بلذع السياط : « لكم كنت أود أن أعرف منك ياسيدى لأى جدّيك أنت مدين بأصلك الذى تقول إنه من أصلاب القرود ! .. » فأجاب هكسلى : « إن النظرية التى يشير إليها المتكلم تدور حول مهبط الإنسان والقرد من أصل مشترك ، خلال آلاف الأجيال . ومع ذلك فما دام السؤال الموجه إلى عاطفياً ، وليس بحاجة إلى البحث العلمى الهادئ الرزين ، فليسمح لى السائل أن أقول : إنى لو خيرت بين القرد ذلك الحيوان الطيب ، المسكين المهرج ، القليل الذكاء ، وبين الإنسان حين يؤتى حظاً عظيماً من المقدرة والمواهب ، والجلال السامى على كل جلال ، فيأبى إلا أن يستغل ذلك كله فى تحقير الباحثين عن الحقيقة — لو خيرت بينهما أيهما أختار ليكون

جدى ، لترددت طويلا جداً فى أى الاثنين أختار . » !

ويقول هكسلى بعد ذلك فى مذكراته إن النظرية الجديدة لم تتحطم يومئذ تحت سنابك السخرية اللاذعة ، ولكن قدر لها أن تجد من يستمع لها ، وأن ينتشر صداها فى الآفاق ومن الغريب أن أحداً ما من علماء التطور لم يقل قط إن الإنسان تحدر من أصلاب القرود . وداروين نفسه يقول بصريح العبارة فى كتابه « مهبط الإنسان » إننا لا ينبغى أن نقع فى خطأ الافتراض بأن الأصل الذى نشأ منه الإنسان يشبه فى كثير أو قليل أياً من النسانيس أو القرود التى تعيش الآن وغاية ما يقوله داروين ويتفق فيه مع سواه من علماء أصل الأنواع أن القرود العليا والإنسان تحدرت من أصل واحد . لم يعرف بالتأكيد حتى الآن . ولا بد أن يكون هذا الأصل مرتبطاً بالطين الذى هو أصل كل الأحياء .

ولقد خلص داروين فى كتابه « مهبط الإنسان » إلى أن الإنسان ليس مديناً بسموه على سائر الحيوان . إلى خاصية واحدة من خصائصه ، أو سجية من سجاياه ، وإنما الفضل فى ذلك لعدد كبير من هذه الخصائص والسجايا . منها اعتدال القامة ، ومنها اليدان ومرانهما الباهر على العمل الدقيق ، ومنها عقله الذى يسر له اكتشاف الآلات واللغات . ولقد عد داروين عقل الإنسان أثراً من آثار تكيفه للبيئة ، وسلاحاً من أسلحة النضال الذى تحتم عليه أن يخوضه فى معركة البقاء .

وعزا داروين الاختيار الجنسى على تطاول الأحقاب إلى أن المرأة أصبحت أحن من الرجل ، وأكثر مودة ، وأشد إيثاراً ، وأن الرجل أصبح أشجع منها وأقوى ، وأصل ذكاء .

٨

خدعوك فقالوا :

إن العقل السليم فى الجسم السليم

ليس العقل السليم دائماً فى الجسم السليم . . . فقد يعتل الجسم أحياناً ، ويظل العقل يتألق تألق النجوم ... وقد يعتل العقل أحياناً ، وترى جسم صاحبه أقوى وأصلب من أجسام البغال .

وفى التاريخ أمثلة عديدة لمئات من أصحاب العلل والآفات البدنية ، قرروا أن يقهروا متاعبهم ، وقهروها فعلا ، وقاموا بأعمال مجيدة فى الفن والعلم وخدمة البشر . . ولعل كثيراً منهم ، كانت العلة الكامنة فى أجسادهم ، وشعورهم بها ، هى حافزهم إلى المجد ، ومهمازهم إلى قهر المتاعب واقتحام المعالى بشجاعة وإقدام . . .

وفى هذا التاريخ كذلك أفراد يعدون بالملايين سلمت أجسامهم من الأمراض والآفات ، وامتلأت رؤوسهم هواء . .

ديون الآثام

إن المرض البدنى قد يؤدى حقيقة إلى اختلال ميزان العقل ، ويكفى أن تراقب مصدوعاً فى معاملته للناس ، أو ممعوداً فى بغضه للحياة ، حتى تلمس مدى تأثير العلل البدنية فى الاتزان العقلى والانسجام مع الحياة .

بيد أن العكس غير صحيح على الدوام ، فالجسم السليم لا يمكن بأى حال أن يكون ضماناً كاملا لعقل سليم ، وكثيراً ما تحطمت عقول وانهارت أعصاب ، دون أن تصحب هذا الانهيار أية علامة من علامات المرض البدنى الخطير . . .

وأكثر من نصف مرضى كل طبيب ، ممن يعانون أمراض القلب والكبد والمعدة والأمعاء — و بالأحرى من يخيل لهم ذلك — ليس فى قلوبهم ولا فى معداتهم ولا أمعائهم شىء ، و إنما تثوى عللهم فى العقل والأعصاب . . . إنهم ضحايا اختلال عاطفى نشأ من صدمات المتاعب والهموم والخوف والحقد والندم ، ومركبات النقص والهوان ، والضمائر المثقلة بديون الآثام !

وقد عرفت علل العقول منذ وجدت البشرية . . . ومثل سائر العلل البدنية . اتهمت فى إحداثها الشياطين التى تسكن الجسم الآدمى ، وتعشش فى رأس المريض . .

قابل للكسر

وكانت وسيلة البشر الوحيدة لطرد هؤلاء الشياطين هى الرقى والتعاويذ ، وثقب الجمجمة حتى يخرج منها الشيطان ، وإغراق المريض بالمليّنات والمقيئات لعل الشيطان ينزاح من جسمه مع فضول القىء والإسهال !

ولكننا الآن نعرف أسباباً أخرى لعلل العقل ، منها الوراثة المسكينة ، والأضرار التى تصيب مخ الجنين قبل ولادته وفى أثناء الولادة ، وبعد

أن يتعرض للحوادث وأمراض الجهاز العصبى فى الحياة .

إن الوراثة تلعب دوراً فى إضعاف العقول ، ولكنه يبدو دوراً أتفه مما يظن الناس فإن كثيراً من المجانين لا يوجد فى أسلافهم مجنون ، وكثيراً من أصحاب العقول الراجحة ينحدرون من أصلاب مجانين رسميين . . وقد يرث المرء من أسلافه جهازاً عصبيًّا من نوع « قابل للكسر ! » ولكنه لا ينكسر ، لأن صاحبه عاش فى هدوء نفسانى ، لم تحدث له كوارث تعرض للكسر هذا الجهاز ! . .

العقل الضرير

وأكثر من الدور الذى تلعبه الوراثة فى الضعف العقلى ، الدور الذى تلعبه الحوادث الطارئة والولادة بالآلات ، ومن أجل ذلك يقوم الآن بعض أنصار الولادة الطبيعية من أطباء النساء بدعوة واسعة النطاق للعودة إلى الولادة الطبيعية ، والتمهيد لها ببعث الثقة فى نفس الأم ، وحمايتها من المخاوف التى يبذرها فى تربة نفسها العجائز والجيران ، وبذلك يقل استعمال الآلات فى الولادة ، ويقل معه الإضرار بمخ الجنين المولود .

وأكثر حالات الضعف العقلى مرجعها إلى البيئة وأثر التربية الأولى فى حياة الطفل ، وتنشئته فى جو تعس يقتل شخصيته ، ويهدم استقلاله . ويخلخل الانسجام بينه وبين أهله وجيرانه ومواطنيه ، ثم الصدمات العصبية العنيفة التى تصادف هذه الشخصيات المنهارة ،

فتركع أمامها ركوع الذعر والضعف واليأس والهوان . .

وأيًّا كان مصدر هذا الضعف العقلى ، فكثيراً ما يحدث ـــ وبالأخص فى بداية الضعف ـــ أن يكون هذا العقل الضرير فى جسم سليم تماماً وربما صلح للعمل فى مصارعة الثيران . .

فالعقل السليم إذن لا يوجد دائماً فى الجسم السليم !



٩

خدعوك فقالوا :

إن العبقرية لا علاقة لها البتة بوزن الدماغ!

لم أكن ولدت يوم توفى الرسام العظيم « رافاييل » ، ولا يوم قضى نحبه الكاتب الفرنسى الكبير « أناتول فرانس » . وبالتالى فإنى لم أشترك فى كتابة شهادة الوفاة لأى منهما ، كما لم أشترك بطبيعة الحال فى تشريح جثتيهما ، وعلى ذلك فما أتيحت لى أية فرصة لوزن دماغ أى منهما حينما مات . ولا أستطيع تبعاً لذلك أن أجيب بمنتهى الثقة عن سؤال لمواطن يقول فيه : « هل صحيح أن رافاييل الرسام وأناتول فرانس لم يكن وزن دماغ كل منهما يزيد على الكيلو جرام الواحد ؟ وأن العبقرية لا علاقة ألبتة بوزن الدماغ ؟ »

النادر لا حكم له

لعل مما يشبع تطلع المواطن السائل فى هذا الصدد ما قرأته فى كتاب للدكتور الفاضل محمد صبحى غنيمة بعنوان « نظرة فى أعماق الإنسان » وفى مراجع أخرى ، من أن وزن دماغ رفاييل يوم مات كان ١١٦١ جراماً ، وأن وزن دماغ أناتول فرانس كان ١١٧٠ ، ولكن هل ينهض ذلك دليلا على أن العبقرية لا علاقة لها بوزن الدماغ ؟

كلا بالتأكيد !!

فإن هاتين الحالتين من الحالات النادرة ، والنادر لا حكم له .
والأكثر شيوعاً أن أدمغة العباقرة تميل إلى الضخامة على الدوام .
فني الوقت الذى يزن فيه دماغ الرجل البالغ فى المتوسط ١٤٥٠ جراما ، نجد أن الروائى الروسى الأشهر إيفان تورجنيف مثلا كان وزن دماغه ٢٠١٢ جراما — والعهدة على نفس المراجع — وأن بسمارك السياسى الألمانى الداهية فى القرن التاسع عشر كان دماغه يزن ١٨٠٧ جرامات..
وأن وزن دماغ الفيلسوف الفرنسى « كانت » كان ١٦٠٠ جرام ، وأن الشاعر الألمانى شيللر كان دماغه يزن ١٥٨٠ . وهى أوزان تفوق كلها متوسط وزن الدماغ فى سواد الناس .

ثم إن من المعروف أن الدماغ الذى يقل وزنه عن الكيلو جرام الواحد ، لا يوجد عادة إلا فى المعاتية والبلهاء وضعاف العقول بوجه عام ! !

العبقرية ليست بالرطل

على أن حجم الدماغ فى ذاته قد لا يغنى شيئاً فى حساب العبقرية والنبوغ . وإلا كان الرجل أذكى من المرأة على الدوام ، لأن متوسط وزن دماغه يزيد بعشرة فى المائة على متوسط وزن دماغ المرأة « وسنرى أن ذلك مرده إلى الفرق بين جسمى الاثنين » وهو استنتاج لا محل له لأن كثيراً من النساء يذهبن بأزواجهن إلى البحر ويعدن بهم عطاشى ظامئين !

إنما يتصل بالعبقرية أكثر من وزن الدماغ مسطح قشرته السنجابية

السمراء ، المحتوية على الخلايا العصبية التى تتلقى ملايين الانبعاثات العصبية وترد عليها بما يتراءى لها من ألوان الاستجابات .

ومن المعروف أن هذا المسطح الذى كان ينبغى أن يكون مساوياً لمسطح الجمجمة من الداخل ، أى حوالى ٨٠,٠٠٠ « ثمانين ألف مليمتر مربع بالتقريب » يزيد على ذلك ثلاثة أضعاف فيصل إلى ٢٢٠ ألف مليمتر مربع ، وذلك لنمو هذه القشرة الهامة داخل أنسجة الدماغ على شكل تلافيف وأخاديد وشقوق تعطى الدماغ شكله المعروف .

ثم إن سمك هذه القشرة نفسه يلعب دوراً هاماً من هذه الناحية . فإن القشرة إذا سمكت وغلظت زاد فيها عدد الخلايا العصبية المذكورة ، ذات الوظائف الحيوية الهامة ، وذات الأشكال المتعددة ، حتى ليصل هذا العدد أحياناً إلى عشرة آلاف مليون أو يزيد . ويخرج من هذه الخلايا محاور عصبية شبيهة بأسلاك التليفون تصلها بمحطات أخرى فى الجهاز العصبى الفذ ، ثم بأنحاء الجسم كافة ، فتتلقى منها مختلف الانبعاثات والأحاسيس ، وتستجيب لها بطريقتها الخاصة ، المستمدة من الوراثة تارة ، ومن الخبرة والتجربة تارة أخرى ، وبين هذه الانبعاثات والاستجابات المعقدة تمضى الحياة إما فى سلام وإما بين زعازع وأعاصير .

وللحس وللمشاعر والنوم واليقظة والتبادل الغذائى وسائر وظائف الجسد ، كما للتفكير والإرادة والسلوك ، أجهزة مكونة من مجاميع معينة من هذه الخلايا ، يؤدى كل منها وظيفة بذاتها من وظائف الدماغ الحسية والعقلية والحركية والخلقية ، لا يتعداها إلى سواها مهما امتدت الحياة .

عوامل أخرى

يضاف إلى ذلك أن الفص الجبهى فى المخ ، وهو أحدث أجزاء الدماغ نشوءاً فى الإنسان ، من المحتمل أن يكون فيه مثوى لكثير من المواهب العقلية المختلفة ، كالذاكرة والمعرفة وقوة الاستنباط .

ثم إن نسبة ما يختص من الدماغ بهذه الوظائف العليا بالنسبة لما يختص بالوظائف الحيوانية الدنيا ، هى كذلك ثقل من الأثقال فى ميزان العبقرية والنبوغ .

هذا إلى أن نسبة وزن الدماغ إلى وزن الجسم كله لها أهمية قصوى فى تحديد نصيب الإنسان من العبقرية أو الذكاء ، بل لعلها أكثر أهمية من الوزن المطلق للدماغ .

إن هذه النسبة فى الإنسان تدل على أن الكيلو جرام الواحد من وزن المخ يخدم حوالى خمسين كيلو جراماً من الجسد ، فى حين أن الأرقام المماثلة فى الشمبانزى والغوريلا تصل إلى ١٥٠ و ٥٠٠ بالترتيب.

ويخدم الكيلو جرام الواحد من وزن الدماغ فى الفيل « وهو يزن ستة كيلوجرامات » ٥٠٠ كيلو من وزن الفيل .

والحالة أسوأ من الحوت حيث يجب على كل كيلو جرام من الدماغ أن يعنى بحوالى أحد عشر طناً من وزن هذا الحيوان .

نحن أذكى خلق الله

فنحن إذن أذكى خلق الله ولا فخر ، وإن كان المظنون أن

الدرفيل قد يضارعنا من حيث هذه النسبة . بين وزن الجسم ووزن الدماغ .

فمن الدرافيل — كما يقول أزيموف عالم البيولوجيا الشهير — مالا يزيد وزنه على وزن الإنسان، فى حين أن دماغه أثقل وأضخم من دماغ الإنسان، وإن كان من غير المعروف ما إذا كان حظه من المراكز ذات الوظائف العليا . مثل حظ الإنسان ، أو أن هذه الضخامة ، كضخامة الجميز ، ينصرف أكثرها إلى الوظائف السفلى للحيوان .

الكلمة الأخيرة فى الموضوع

وليسمح لى المواطن السائل أن أردد له فى النهاية ما يقول أزيموف هذا :

« إن ثقل الدماغ وحده ، وإن كان آية من آيات الذكاء ، ليس الكلمة الأخيرة فى هذا الموضوع » .



١٠

خدعوك فقالوا :

إنه ليس لك إلا خمس حواس

كتب أحد الأدباء في جريدة الأخبار عن الحاسة السادسة لدى المرأة ، فقال إنها هاتف أو إلهام يدفعها إلى القيام بعمل غير متوقع* ، ثم تتبين بعد ذلك أن هذا العمل كان هاماً وضرورياً ، ولو أنه تم بغير قصد أو تخطيط ؛ وقال إنها حاسة يتمتع بها كل النساء ، وإن الملهمين فيها قلة بين الرجال .

ووصف هذه الحاسة بالسادسة فيه تجاوز كبير ، فالكائن البشرى يملك على الأقل خمس عشرة حاسة ، وليس فقط خمس حواس . نعم إن الحواس الخمس هى السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، واضحة لصاحبها تمام الوضوح ، لأن لكل منها عضواً خاصاً بها ، ولا يستطيع أن ينساها أو ينسى وظائفها ، وهو يتبين عن طريقها الأشياء .

ولقد عرف أرسطو هذه الحواس الخمس ؛ ولعله تلقى هذه المعرفة عن قدامى المصريين ، وظلت الحواس الخمس عندئذ تتردد على أقلام الكتاب وألسنة الشعراء كجزء من تركة الأفكار والعقائد والمفاهيم التى يتوارثها جيل عن جيل ، وإن كان الواقع أن المرء لا يملك خمس حواس فقط ، وأن حواسه أكثر من ذلك . وليس ما سأذكره منها فى هذا المقال إلا طائفة بعينها من هذه الحواس :

عبقرية الخلق

فنى الجلد غير حاسة اللمس ثلاث حواس أخرى معروفة لكل منا وهى حواس البرودة والسخونة ، ثم الضغط ، والألم الظاهر . وبرغم أن هذه الحواس موجودة كلها فى الجلد مثل حاسة اللمس تماماً ، فإن لكل منها مستقرًّا فى الجلد غير مستقر اللمس . ويستطيع العارف بوظائف الأعضاء ، أن يرسم خريطة على الجلد لهذه الحواس التى تتقاسم الجلد ، وإن كان لكل منها موقع خاص بها . . وهنا تبدو عبقرية الخلق . التى توزع فى هذا الجزء المحدود مائتى ألف جهاز استقبال للحرارة والبرودة ، ونصف مليون جهاز استقبال للمس والضغط ، وثلاثة ملايين جهاز استقبال للألم تشعرنا بملايين المؤذيات التى تحيط بنا فى البيئة حيث نعمل وحيث نعيش .

الثقل التقريبى للأشياء

وهناك الحاسة العضلية التى نستطيع بها تقدير الوزن التقريبى للأشياء ، ولكى ندرك حقيقة هذه الحاسة نتصور ساعة موضوعة على نضد بجوار سرير نضطجع فيه . . فلو وضعنا يدنا على هذه الساعة لأحسسنا وجودها باللمس ، كما نحس وجودها بالعين ، وكما نحس بآذاننا الصوت الرتيب لدقاتها التى تتحيف ببطء أعمارنا وعمر الزمان ، ولقد نحس الساعة باردة بالقياس إلى جلدنا الدافئ ونحن مضطجعون

فى السرير تحت اللحاف . . فإذا رفعنا الساعة بيدنا من فوق النضد استطعنا بهذه الحركة أن نضيف إلى معارفنا السابقة عنها معرفة جديدة ، لم تكن تخطر لنا قبل هذه الحركة على بال ، وهى معرفة الثقل التقريبى لهذه الساعة . ومن المؤكد أن الحاسة التى أمدتنا بهذه المعرفة الجديدة لا علاقة لها باللمس ، وإلا أدركناها ونحن نلمس الساعة . . وإنما علاقتها بالعضلات ، وشعور المقاومة الذى نحسه لثقل الساعة فى عضلات الذراع .

نحن والوطاويط

ثم هنالك حاسة الأبعاد التى يستطيع المرء بها وهو مغمض العينين أن يحكم على بعده أو قربه من الحواجز والجدران ، من غير أن يراها أو يلمسها ، وهى حاسة يشتد نموها فى العميان ، حتى ليمشى أحدهم فى المكان الذى يألفه بدون عكاز أو دليل ، وبدون أن يمد يديه إلى الأمام يتحسس بهما الطريق ، ولهذا نراه قبل أن يصطدم بحاجز أو جدار يتحول عنه ، مبتعداً عما يؤذيه إلى مالا يؤذيه ، ولعل هذه الحاسة أو حاسة مشتقة منها هى التى تجعل كائناً كالوطواط ، يطير فى الكهوف المظلمة بسرعة البرق الخاطف لا يمس شيئاً ولا يصطدم بشىء ويسرى فى منعرجات الكهف سريان الصاروخ الموجه نحو هدف يبتغيه .

الساعة الخامسة إلا ربعاً

وفوق ذلك فإن لنا حاسة أخرى لتقدير الزمن ، وحسبى فى الإشارة

إليها أن أذكر هذا الفريق من الناس الذين تنمو فيهم هذه الحاسة نمواً، خاصاً فيأوى أحدهم إلى الفراش وهو يضع نصب عينه أن يستيقظ فى ساعة معينة ، ليصلى الفجر حاضراً ، أو يلحق القطار ، أو يذهب إلى موعد هام فيستيقظ فى الوقت المحدد نفسه مهما طالت به ساعات السهر ، ومهما بلغ استغراقه فى النوم ... إن حاسة تقدير الزمن موجودة بقدر أو آخر فى كل إنسان ، ولكن لهذا الفريق من الناس منها نصيب كبير ملحوظ .

أين نحن فى الفضاء

وفى عضلاتنا حاسة أخرى تشترك معها فيها أربطة المفاصل وكذلك العظام ، وهى حاسة « الموقع » أى الشعور بمكاننا من الوجود ، وهو الشعور الذى يستجيب الجهاز العصبى للأحاسيس الصادرة منه فيأمر العضلات أن تتخذ هذا الوضع أو ذاك ، ويلزم الحدود التى لا بد منها لتتزن أجسامنا فى الفضاء حين نقوم وحين نقعد وحين نجرى وحين نسير ، بل حين يتعب جنب فنتقلب على الجنب الآخر دون وعى منا ونحن نيام ، أو حين نرقص على حبل أو نمشى بين ماءين على فاصل بينهما من الأرض كالصراط .

حواس أخرى

وثمة حاسة الامتلاء وهى حاسة باطنة ، تنبعث من المثانة أو الأمعاء لتنبئنا أن هذه الأحشاء قد اكتظت بالفضول ، وأن أوان تفريغها قد

آن . . ومثلها من هذه الناحية حواس الشبع والجوع .

قلب الأم

تلك أربع عشرة حاسة ، وليست الحاسة « السادسة » المزعومة ، وهى الهاتف الخفى الذى يأمرنا بشىء أو ينهانا عنه دون قصد أو تخطيط ، فنطيعه ، فيكون لنا فى طاعته خير كثير ، ليست هذه الحاسة إلا الحاسة الخامسة عشرة بين هذه الحواس ، ولعل نصيب الأم من هذه الحاسة فى كل ما يتعلق بسلامة أولادها هو أوفر الأنصباء . وإنى لأذكر من هذه الناحية حادثاً وقع لى ذات ليلة وأنا شاب ، فقد طلبت عشائى، ثم دخلت الحمام ، وكان به موقد بترول كبير لتسخين الماء ، فتسممت من أول أكسيد الكربون الذى ينشأ من نقص الأوكسجين بسبب احتراق البترول والفحم فى الأماكن المغلقة ، وأحسست فى رأسى بالدوار ، وفى عضلاتى بالضعف والوهن ، وكانت آخر حركة قدرت عليها قبل أن تدركنى غيبوبة التسمم ، أن أفتح محبس الهواء فى الموقد ، وكان هذا لطف الله ، وكانت أمى — يرحمها الله — سيدة مسنة ، وسألت عنى فقيل لها إننى عدت واستحممت وتعشيت وأويت إلى الفراش ولكنها لم تقتنع وظلت تعيد السؤال وتتلقى الجواب نفسه ؛ فقامت بعد لأى تتوكأ على الجدران فى الظلام حتى أتت فراشى ، فلم تجدنى . وكان هاتفها الخفى أو حاستها الخامسة عشرة سبباً فى إنقاذى من الهلاك ، وأنا ملقى على أرض الحمام ثلاث ساعات تائهاً فى غيبوبة الاحتضار .

الأرقام الصغار

ليس مما يتفق مع الواقع إذن أن نتحدث عن حواسنا الخمس ، فحواسنا أكثر من خمس، وأكثر من عشر ،بل أكثر من الحواس الخمس عشرة التى أشرنا إليها إشارات عابرة فى هذا المقال . إن أجسامنا التى هى آية من آيات الله فى الخلق والإبداع لا تعرف مثل هذه الأرقام الصغار !



١١

خدعوك فقالوا :
إنك تهرم فى الستين

ليس للهرم من الناحية العلمية سنّ معينة ، ولا للشيخوخة فى أعمار البشر ميقات محدد ، فبعض الناس يهرمون فى الثلاثين ، أى فى السن التى كان ينبغى أن يزدهر فيها الشباب ؛ وبعض الشيوخ يتألقون فى السبعين والثمانين . إن الشيخوخة لا تقاس بعدد السنين التى قضيتها من عمرك ، ولكن بالقدر من الطاقة والقدرة على العمل المنتج ، والقابلية للاستمتاع بالحياة ، والتمكن من إفادة الناس . لقد يهن العظم فى الشيخوخة حين تجىء ، ويتغضّن الجلد ، ويشتعل الرأس بالشيب ، إن كان بقى فيه من الشعر ما يمكن أن يشتعل ، وقد تمنى الذاكرة بشىء من الوهن ، وقد تبطىء سرعة النشاط ، وتقصر الرؤية بالليل ، وتتخلخل قوة الملاحظة ، وكل ذلك نتيجة التصلب التدريجى فى الشرايين ونقص جراية الدم التى تحملها للأنسجة والأحشاء . بيد أن هذه السمات كلها مرهونة برصيد الإنسان الوراثى من قوة البنية وصحة الشرايين ، والجرذان نفسها فى أقفاص التجارب ، تنجب من الذرية ما يبقى شبابه طويلا ، وما يشيخ فى بواكير الشباب . ويعزز هذا الرصيد الوراثى من هذه الناحية نوع الحياة التى يحياها المرء ، وهل يحياها بحكمة ، أو هو يعربد فيها بالعرض والطول ؟ ثم نظامه الغذائى وعاداته فى الطعام ، ومقدار

نشاطه البدنى والعقلى ، ومايصاب به بحكم الظروف أو نتيجة التفريط والإهمال من أمراض وآفات ، والناس يختلفون أشد اختلاف فى هذه الأرصدة كافة، بعضهم دائن، وبعضهم مدين ، وبعضهم يغرقه الدين همًّا بالليل ومذلة بالنهار . ولقد كان برنارد شو الكاتب الروائى يتلألأ بالصحة البدنية والعبقرية الذهنية وهو فوق الثمانين . واستطاع تشرشل أن يقود بلاده إلى النصر فى الحرب العالمية الأخيرة وبعد هزيمتها الكبرى فى دنكرك ، وهو فوق السبعين . وهاهو ذا شارل ديجول رئيس جمهورية فرنسا السابق قد ملأ الدنيا وشغل الناس وهو فى التاسعة والسبعين . وليس هؤلاء الساسة بدعاً من هذه الناحية ، ولا هم خوارق أو معجزات ، ففى محيط كل منا معمرون انحنت أكتافهم تحت وقر السنين ، ولا يزالون يعملون بجبروت الشباب الممتزج بخبرة الشيوخ ودرايتهم ومعارفهم : إن السن لم تكن قط معياراً للصحة والعافية والنشاط والقدرة على الإنتاج والمتعة بالحياة ،والذين سنّوا قوانين الإحالة إلى المعاش فى سن الستين ، إنما استوحوا هذه القوانين من متوسطات الأعمار التى كانت سائدة فى شعوبهم وقت إصدار هذه القوانين . فى بلادنا مثلا كان متوسط الأعمار حين صدر هذا القانون أقل من ثلاثين عاماً ، وكان من المعقول أن تصبح سن الستين بداية لسن العجز أو الوهن البدنى أو العقلى لكثير من الناس ، فأما وقد بلغ هذا المتوسط فى بلادنا اليوم ، وحسب إحصاء سنة ١٩٦٠ ، اثنين وخمسين عاماً ، بفضل الإصلاح الصحى الدائب والانتعاش الاقتصادى العام ، وبفضل العصر الطبى

الذى يجب أن نزهى بالحياة فيه ، والذى أولانا كثيراً من النعم فى الطب والجراحة والتخدير والعقاقير الشافية لكثير من الأمراض التى كانت تمهد للعجز وتخترم الحياة ، والعقاقير والنظم الحيوية المؤجلة للشيخوخة ، والتى أصبحت اليوم موضوع علم مستقل خطير — أما والأمر كذلك فإن من الظلم أن نستمر على النظر إلى قدرة الإنسان وطاقاته فى سن الستين بالعين التى كان ينظر بها أجدادنا إليها ، أى اعتبار أبناء الستين « كخيل الميرى العطلانة » التى لا يصلح لها إلا ضرب الرصاص ! !

نعم إن ذلك قد يصح فى بعض أصحاب المهن القاعدة التى لا يفارق أصحابها المكتب إلا إلى المقهى ، ولا يغادرون المقهى إلا إلى السرير ، وهى المهن التى توزن السنة فيها بسنتين فى موازين الصحة والعافية والكفاية البدنية والعقلية ، والتى تمد طرقاً سلطانية إلى الفناء التدريجى المبكر ، إذا لم يلتمس أصحابها لأنفسهم مجالا للنشاط ، والرياضة البدنية ، يكافحون به غزوات الخمول والكسل للأنسجة والعضلات واستحالة الأغذية الفائضة عن حاجات الجسم إلى رواسب دهنية فى بطائن الشرايين.. كما أنه قد يصح فى بعض الصناعات الدقيقة التى تحتاج إلى قوة الملاحظة فى عنفوانها ، وإلى مرونة حركة عضلات الأنامل على أقوى ما تكون ، وإلى اليقظة المرهفة فى الحواس بصفة مستمرة ، وسن الستين وما فوقها قد لا تسخو على صاحبها بمثل هذا الترف فى القوى والقدرات ، بيد أن من الثابت الآن فى المهن الذهنية بالذات ، أن الذاكرة وإن

وهنت بعض الشيء فى بدء الشيخوخة فإن احتفاظ المرء بقوى الفطنة والخلق والإدراك كما يتوقف على رصيده الوراثى مرهون كذلك ، بما اكتسبه من المران العقلى فى مراحل حياته ، وما ادخر من ذخائر المعرفة والثقافة على طول السنين.. وليست الذاكرة من هذه الناحية بالرصيد الذى لا يمكن تعويضه ، ولا هى بالمستلزم الضرورى الذى يحتاج إليه الشيوخ ، ولاسيما العلماء ، وكلنا يعرف حكاية نيوتن والبيضة التى كان يضعها على أذنه ، والساعة التى كان يقذف بها فى الماء المغلى على النار ! !

لقد رأيت فوجاً من الشيوخ حشدتهم إحدى مقدمات البرامج فى التليفزيون ، وكلهم من المحالين إلى المعاش . . أجلست جماعة منهم فى الشمس كتنابلة السلطان ، يمصون أصابعهم ، ويعدّون الغربان فى السماء ، ونظمت ثلة منهم فى مقهى يقتلون الوقت الفارغ بالاستماع إلى قرقعة حجارة النرد ، وهى « تضرب ، وتهرب ، وتملأ الخانات » ، ورصت فريقاً منهم تحت خميلة ظليلة ، أمرت سنة من نوم القيلولة أن تطوف بهم مصعدة بأحلام بلاهتهم البادية من شفاههم المدلاة ، إلى حيث تقف سفينة فينوس السوفييتية على سطح الزهرة فى ملكوت السماوات !

ولست أدرى فى الواقع كيف اتفق للسيدة المذيعة أن تجمع على ميكروفونها كل هذا الحشد من العجائز المتعطلين ؟! لقد عرفت شيوخاً بالمعنى السيئ الحظ الذى توحى به هذه الكلمة فى خواطرنا ، يعملون وهم فى السبعين من أعمارهم ، فى بعض المحافل الدولية الفنية ، ويعدّون

فيها كالمصابيح الهادية و « الفرامل » التى تحول بين العاملين فى هذه الأوساط وبين جموح الشباب . ولقد كان سيدنى سميث الذى كان استاذاً للطب الشرعى فى أوائل هذا القرن ، فى جامعة القاهرة ، عميداً لكلية الطب فى أدنبرة ثم مديراً لجامعتها ، وهو يخطو إلى السبعين .

ولقد حدث لى ذات مرة وأنا فى بداية حياتى الطبية ، وكنت أعمل بقسم الأمراض فى كلية طب القاهرة مع الأستاذ برنارد شو ، وهو ابن عم لبرنارد شو الكبير – وكان يقول لمن يسأله : هل يمت بالقرابة للكاتب المشهور ؟ إن هذا الكاتب هو الذى يمت لى بصلة القرابة ! . . . حدث أن كتبت فى تقرير أصف فيه جثة سيدة متوفاة فى الثالثة والأربعين من عمرها . إن الجسد جسد امرأة فى وسط العمر ، فلم تكد عين الأستاذ تقع على هذا الوصف حتى انتفض كالذى لدغته عقرب ، وقال : إذا كنت تعدّ هذه المرأة – وهى فى الخامسة والأربعين – متوسطة العمر ، فلا بد أنك تعدنى وأنا فوق الخمسين ، فى الغابرين ولم ينقذنى من لسانه الطويل – غفر الله له – إلا إثباتى له أن متوسط العمر عندنا يختلف تماماً عن متوسط العمر فى مسقط رأسه بإيرلندة حيث كان يقترب يومئذ من الستين ، وعرفت أستاذاً جامعياً مصرياً نصحه أطباؤه بسبب عاهة تخلفت عنده من جراحة فى المخ أن يهجر التدريس إلى آخر عمره ، وأن يتنحى عن كل نشاط اجتماعى فى الحياة ، ولكنه رفض النصيحة ، وقاوم وناضل ، وأخضع عاهته لألوان شتى من التأهيل ، وظل ولا يزال حتى السادسة والستين يمارس نشاطه ثلاثين سنة لم يلحظ عليه فيها أحد

شيئاً ، ولا حالت عاهته دون أى نشاط يطالب به أستاذ .

وقد شاء صاحب مصنع سيارات مشهورة فى أمريكا حين خلف أباه على هذا المصنع حوالى ١٩٤٩ ، وهو فى عنفوان الشباب ، شاء أن يحيل إلى الاستيداع كل من سماهم بالشيوخ الذين جاوزوا الستين من المهندسين ورؤساء الأقسام والعمال . فكانت النتيجة إخراج سيارة كنت أحد ضحاياها ولا فخر ! فقد كانت تستهلك من البنزين ماتستهلكه قاذفة قنابل ، وكانت تحرق الزيت كأنه حطب والعياذ بالله ، وكانت تمشى تتهادى فى الطريق تئز وتنز كالنعش المفكك ، ولا يحلو لها أن تضرب عن المسير إلا عند إشارة المرور . . . ولقد اضطر الشاب الفيلسوف صاحب المصنع بعد هذا الدرس القاسى أن يعود إلى التعامل مع الشيوخ الذين أحالتهم رعونته إلى الاستيداع ، مضيفاً إلى فورة الشباب وحماستهم ملح الخبرة فى الشيخوخة والحكمة والنضج .

إن موضوع الشيخوخة فى النهاية موضوع كفاية وقدرة وعافية أكثر منه موضوع شهور وأعوام . والسن التى يهرم فيها الإنسان لا تحددها التقاويم ولا قوانين المعاشات ، ولكن تحددها الوراثة وممارسة النشاط البدنى والعقلى بانتظام ، والتماس هواية مفيدة قد تصبح لصاحبها فى الشيخوخة مجلبة رضا ومصدر رزق ومنبع شباب يحميه من الحياة فى المقاهى وتحت الخمائل كتنابلة السلطان ، وانتفاع بالغذاء الكافى التى تتوافر فيه كل العناصر الغذائية التى تحتاج إليها خلايا الأنسجة بدون إفراط ، والتوسط فى المتعة بملاذ الحياة ، واستعمال العقاقير الواقية من الشيخوخة التى ينصح

بها الطبيب ، والفحص الطبي الدورى مرة كل عام . . إنك تستطيع بهذه الوسائل – ومعظمها ممكنة التحقيق – أن تتحدى الزمن فى شيخوختك ، وتتحدى قانون المعاشات ولا تكون كالعبيد الذين كلما كبروا قلت قيمتهم فى السوق ولا كخيل الميرى العطلانة التى لا يصلح لها إلا ضرب الرصاص !



١٢

خدعوك فقالوا :

إن قلبك فى جانب صدرك الأيسر !

يقع قلبك « أو قل معظمه » وراء عظمة القص التى تتوسط الصدر ، هى وما يتصل بها من غضاريف الأضلاع ، ولكنك إذا سألت عدداً من الناس ، حتى المثقفين ، عن موضع القلب ، أشاروا لك توًّا إلى جانب الصدر الأيسر ، لا لشىء إلا لأنهم يحسون دقاته هناك .

إن القلب أشبه ما يكون بمخروط عضلى يتوسط الرئتين فى قاعدته فى الجانب الأيمن من الصدر ، وجرمه تحت القص ، ورأس المخروط فى الجانب الأيسر . ويمثل هذا الرأس نهاية البطين الأيسر للقلب . وهو الوعاء الذى يتسلم الدم النقى من الرئتين ويدفعه بقوة إلى الشريان الأكبر فى الجسم — الأبهر — فيوزعه على سائر الأنسجة والأعضاء والأحشاء بعدالة عمر بن الخطاب . وفى كل دفعة من دفعات هذا الدم يحس المرء دقة من دقات قلبه إذا أنصت إليه ، ولا سيما إذا كان ينبض بعنف لأى سبب من الأسباب .

من ٢٥ إلى ١٠٠٠

إن دقات القلب تزداد وتشتد بالمجهود العضلى الشاق ، والانفعالات النفسية المفاجئة ، ودرجات الحرارة المرتفعة ، وفى أثناء هضم الطعام ،

وعند الفزع من موقف رهيب ، وبعد النزف ، وفى الصدمات العصبية ، وفى مناوشات الغرام ، وعند تضرج الوجنات بحمرة الخجل ، وحين ترى الحبيبة المخلصة جالسة مع شخص آخر على حجر فى سفح الهرم الكبير !

ويدق قلب الشخص البالغ فى حالة الهدوء من ٧٠ إلى ٨٠ مرة فى الدقيقة ، أى أنه يدق أكثر من ١٠٠,٠٠٠ دقة فى اليوم ، أو أكثر من ٢٠٠٠ مليون مرة فى عمر الشخص الذى يبلغ الستين ، وبدون عطلات أو إجازات مستطيلة . وهو يدفع إلى الجسم فى كل دقة حوالى نصف فنجان شاى من الدم ، ويصل ما يرسله من الدم إلى الجسم خلال هذا العمر إلى حوالى ٦٤ مليون جالون .

على أن دقات القلب تختلف بين مرحلة ومرحلة من العمر .

آه ياقلبى !

إن دقات القلب سبب من سببين رئيسيين جعلا أكثر الناس يعتقدون أن القلب فى الجانب الأيسر من الصدر ، والسبب الثانى هو ما ألف الناس أن يسمعوه من أن الآلام الناشئة من اعتلال القلب تكون فى هذا الجانب من الصدر ، وهو باطل آخر من سلسلة الأباطيل التى تتصل بتاريخ هذا العضو الحيوى العظيم . . فألم القلب ليس وقفاً على الجانب الأيسر من الصدر ، وإنما يكون أكثره تحت عظمة

القص وينتشر منها إلى اليمين أو الشمال إلى الذراعين ، أو إلى أسفل الصدر أو أعلاه .

ثم إنه ليس ألماً ككل الآلام التى تطعن كالخنجر ، أو تخز كالمسمار ، أو تتشعب تشعب التيار الكهربى . . . إنه ألم ضاغط ، خانق ، ساحق ، كأنه حمل هائل يجثم على الصدر ، أو كأن الصدر تعتصره كلابتان . يضاف إلى ذلك أن هذا الألم يأتى عادة بعد القيام بمجهود ، ويذهب إذا ذهب المجهود .

وقد يحدث هذا الألم نفسه من موت بضعة من عضلة القلب نتيجة للانسداد الكامل فى الشريان الذى يمدها بالغذاء والأوكسجين ، وفى هذه الحالة لا يرتبط الألم بالمجهود ، وقد يقترن بالإغماء .

وليس كل ألم فى الجانب الأيسر من الصدر منشئوه القلب ، فإن الآلام فى هذه المنطقة كثيرة ، وبالأخص منها الألم الواخز والألم النشار ، فقد تكون هذه الآلام مما يسمى خطأ بروماتزم العضلات ، وقد يكون منشئوها من مفاصل العمود الفقرى فى العنق والظهر ، وقد تنشأ من القلق النفسانى الذى يختار هذه المنطقة بالذات ليجرب فيها ألاعيبه استثارة للاهتمام .

العضو الأصيل

إن القلب هو أقوى عضلة من عضلات الجسم ، ولعله أطولها عمراً ، وأشدها جلداً على المحن والأحداث ، وأكثرها ازدهاراً على الجهد

والنشاط والعمل الشاق . والقلب أشبه مايكون فى عمله . بالآلة ، فإنه أقل الآلات حاجة إلى الراحة أو الإصلاح ، أو قطع الغيار ، هذا بطبيعة الحال إذا لم يضايقه مرض كالروماتزم المهمل الذى لا يعالجه صاحبه ولا يحاول توقيه ، برغم أنه مرض قابل للتوقى والعلاج ، وما لم يعرقل عمله مرض كتصلب الشرايين .

صدأ السنين

إن تصلب الشرايين أقرب ما يكون إلى صدأ يرسب فى بطانتها رسوب الطين فى قنوات الرى ، ويضيق مجراها كضيق مجرى هذه القنوات بالأعشاب ، فيجعلها عرضة للانسداد .

وأهم أسباب هذا الصدأ ارتفاع ضغط الدم مع السن ، والسمنة المفرطة ، والتخمة ، وغنى الطعام بدهن الحيوان ، وقلة النشاط والرياضة ومرض السكر ، والإفراط فى التدخين ، والاضطرابات العاطفية المزمنة . مضافاً إلى هذا كله مايرثه المرء من استعداد لهذا الصدأ من الآباء والأجداد .

إن هؤلاء المتآمرين التسعة كثيراً ما يجتمعون معاً على القلب الشهيد فتسوء عقباه ، وكثيراً ما يجتمع بعضهم ويغيب بعض ، وكلما قل العدد قلت متاعب القلب ، وفى استطاعة كل إنسان أن يحول دون اشتراك أكثريتهم فى هذا التآمر على قلبه ، ولا سيما إذا طردهم بالعيش المنظم ، والتوسط ، والطعام المناسب ، والرياضة المعتدلة والابتسامة للحياة ،

والفحص الطبي الدوري ليعرف أى هؤلاء المؤتمرين قد استغفله، واقتحم مكان الاجتماع .

إن عنترة بن شداد لو قام من قبره وضرب بسيفه البتار عدوًّا من أعدائه فى منتصف الرأس ، ومنتصف عظمة القص ، فشطره رأسياً ومن الأمام إلى الخلف إلى شطرين ، لوجدنا أن القلب قد انشطر هو الآخر إلى شطرين ، فكان نصفه إلا قليلا فى جانب الصدر الأيمن ، وكان نصفه – أو فوق ذلك قليلا – فى الجانب الأيسر . .

بيد أن عنترة لو فعل ذلك الآن ، لما ذهب الأمر دون مضاعفات ، فإن حبل المشنقة كفيل بأن يعيده إلى حيث كان ، وقد انشطر عنقه – بالعرض لا بالطول – على طبلية الإعدام ، وخير له أن يبقى حيث هو ، كافيًا خيره شره ، متمتعاً بسمعته الحسنة على الأقل بين الأبطال والشجعان ! !



١٣

خدعوك فقالوا :

إن كل ألم فى المفاصل روماتزم

كانت صلاة الجمعة فى مسجد قروى ، وكان بجوارى شيخ متداع كلما قام من ركعة أو سجدة سمعت مفاصله « تطقطق »، وسمعت من فمه أصواتاً خافته تختلط فيها شعائر الصلاة بالأنين البادى والمكتوم « ياضهرى ياضهرى . . يا كريم يارب ! » وسألته بعد أن انتهت الصلاة عما به فقال : « المدعوق المورتوزم يا ابنى . . أجارك الله » ! »

وكان يقصد الروماتزم بطبيعة الحال .

والذين يتهمون الروماتزم بكل ألم يصيبهم فى المفاصل كثيرون، وهو اتهام ظالم قلما يصح إلا فى أقل من خمس حالات فى المائة من حالات آلام المفاصل . فالروماتزم مرض من أمراض الطفولة والشباب وهو مرض للقلب أكثر منه مرضاً للمفاصل ،فهو على ما يقال كلب عقور يعض القلب بقسوة ويلعق المفاصل برفق ، ولايكاد المريض يعالج من الروماتزم حتى تعود المفاصل إلى حركتها الحرة كأحسن ما كانت عليه . وقد يستطيع المريض بالروماتزم الحقيقى أن يتقى هذا المرض وأفاعيله فى المفاصل ، يتقى المرض نفسه وأذاه ، إذا عالج علاجاً حاسما كل التهاب يصيب الزور .

فالروماتزم إذن لايضرب المفاصل بعنف ، ولا يعيث فيها فساداً ،

وإنما تفعل ذلك أمراض أخرى ، تضرب المفصل بشدة ، وتدمّر أغشيته الداخلية ، وتأكل غضاريفه ، وربما أكلت كذلك جزءاً من العظام .

شبيه الروماتزم

وعلى رأس هذه القائمة من الأمراض الالتهاب المفصلى شبيه الروماتزم ، وهو مجهول الأسباب حتى الآن ، ويصيب النساء أكثر من الرجال ، ويضرب عادة بين سن العشرين وسن الأربعين ، ويؤثر فى المفاصل الصغرى بالأيدى والأقدام أكثر مما يؤثر فى المفاصل الكبرى ، ويصحب الإصابة ضمور شديد فى العضلات ، وتيبس فى حركة المفاصل المصابة ، يفقدها القدرة على الحركة بالتدريج . .

ومن أهم ظواهر هذا الألم المفصلى أنه يزداد مع الراحة ، ويقل مع النشاط وقد تتشوه اليد أو القدم فتصبح كالمخلب إذا لم يعالج المريض . وقد يصبح المريض قعيد الدار . وعلى الرغم من تسمية المرض بأنه شبه روماتزمى فإنه لا يمت للروماتزم بأية صلة أو رباط .

الانحلال الشيخوخى

ومن أشهر أمراض هذه القائمة كذلك ، الانحلال المفصلى الشيخوخى أو ما يسمى بالالتهاب العظمى المفصلى وأكثر من يصاب به الكهول بين الأربعين والستين . وأكثر المفاصل استعداداً للإصابة به

هي المفاصل التي تحمل ثقل الجسد كمفاصل العنق والظهر والمقعدة والركبتين . وكذلك المفاصل التي تجهد بالعمل « كالمفاصل النهائية في أصابع النساء » ، وهو المرض الذي تكثر فيه طقطقة المفاصل عند الحركة ، نتيجة لتصادم عظام المفصل بعضها ببعض ، بعد أن أفنى المرض ما كان يكسوها من الوسائد الغضروفية ، التي تجعل تحرك عظام المفاصل بعضها فوق بعض أسلس ما يكون . ومن سمات هذا الألم أنه يزداد مع التعب ، وطول الوقفة ، ومشقة العمل ، ويزول أو يخف حين يستجم المريض .

القائمة طويلة ..

ومنها السل الذي يدمر هو كذلك غضاريف المفصل وعظامه ، ولاسيما في المفاصل الكبرى كالفخذ والركبتين . . فهو كاللص الذي يسرق الجمل وينصرف عن الدجاج . إذ يختار مفصلا كبيراً أو مفصلين فيتلفهما ، إذا لم يعالج ، ويضيع حركتهما ، ويؤدي إلى تقصير الساق المصابة ، وتثبيتها في وضع يغلب عليه التشويه .

وقد يؤذي بعض المفاصل الكبرى كذلك السيلان الذي لا يعالج . وقد قل هذا المضاعف من مضاعفات المرض الآن ، لأن الشباب أصبح أكثر وعياً لمزالق المراهقة من جانب . ولأن مضادات الحياة الجرثومية « من الجانب الآخر » أصبحت سلاحاً فعالا ضد هذا المرض السافل السخيف .

وفى قائمة هذه الأمراض المدمرة للمفاصل توجد بعض الأمراض الخبيثة « كالسرطان » وكثير من الأمراض الأخرى قليلة الحدوث .

ضلال حتى فى الأسماء

على أنه بغض النظر عن آلام المفاصل الناشئة من الأمراض ذات القدرة على إتلافها ، فإن هناك سلسلة أخرى من آلام المفاصل يطلق عليها اسم مزدوج وهو الروماتزم العضلى ، وهى تسمية باطلة لأن أسباب هذه الآلام لا علاقة لها هى الأخرى بالروماتزم، وهى ولو أنها فى المفاصل إلا أن مركز الأذى فيها هو العضلات والأوتار المحيطة بالمفاصل . وأسباب هذا الروماتزم العضلى المزعوم غير معروفة تماماً ولكن المعروف أن هناك ظروفاً خاصة تهيئ له الطريق .

بعض من كل . .

فالبرد والرطوبة إذا تعرض لهما مفصل بذاته ، دون الجسم كله ، فقد يحس المرء ألماً فيه . .

والتعب بعد الخلود إلى الراحة طويلا قد يحدث فى بعض المفاصل تيبساً فى الحركة مع بعض الآلام التى تزول فى أيام .

ويحدث مثل ذلك فى الصناعات التى تقتضى إرهاق العضلات فى عمل شاق طويل . وأكثر ما تحدث هذه الآلام المفصلية حين تكون

العضلات مرهقة ثم تتعرض للبرد بعد الإرهاق .

والأذى الذى يصيبُ مفصلا بعينه قد ينصبُ على بعض عضلات المفصل أو أوتارها فيؤدى إلى كثير من المضاعفات والآلام . ومن هذا النوع إصابات مفاصل الرياضيين ، ولاسيما لاعبى الكرة ، من الضربات الخطأ ، والتصادمات العمياء . والسمنة المفرطة قد تصحبها آلام فى مفاصل العنق والظهر ، نتيجة لحمل أثقال من تلال الشحم ، أو للانزلاق الغضروفى فى مفاصل العمود الفقرى ، وهو كثير الحدوث فى هذه الأحوال .

وفى بعض العدويات كالأنفلوانزا والتهاب اللوزتين و « حتى لو لم يضاعف هذا الأخير بالروماتزم » كثيراً ما يقترن ، المرض بآلام فى المفاصل منشؤها العضلات . بل إن القلق النفسانى والصراع العاطفى قد يؤدى حياناً إلى مثل هذه الآلام . وفى كل هذه الأحوال لا يجد المريض مشجباً يعلق عليه متاعبه إلا الروماتزم ، والروماتزم الحقيقى منها برىء .

الوقاية خير . .

وإذا كان لدى الأطباء أكثر من وسيلة يحتالون بها على علاج كثير من هذه الأمراض ، فإنه لا توجد قاعدة عامة لتوقى آلام المفاصل ، وإن كانت فى تعاليم الصحة الشخصية بعض الخطوط العريضة لتحاشى هذه الآلام .

ومن هذه الخطوط تفادى البرد والرطوبة والتيارات الهوائية بقدر الإمكان ، واستعمال عوازل الرطوبة فى جدران المبانى ، وارتداء الصوف على الجسم وفى الأقدام فى الجو البارد ، وتجنب الإجهاد العضلى العنيف ولا سيما فى عمال النقل والمناجم والمعادن . . ومحاربة أى بؤرة للتقيح فى الجسم ، كتقيح الزور والجيوب الأنفية والأسنان . . ثم استشارة الطبيب فى كل مايطرأ علينا من هذه الآلام . .



١٤

خدعوك فقالوا :
إن القلب ينبوع العواطف

مخدوعون هم أولئك الذين يظنون أن استبدال قلب فى عنفوان الشباب بالقلب المريض العجوز المتداعى من المرض والشيخوخة سيغير من الانفعالات العاطفية للشيخ ويجعله يحمر بسرعة من الخجل ، ويرخى أجفانه دلالا وحياء ! !

لقد بدأت أقلام الكتاب تدغدغ جنب الشيخ واشكانسكى ، وهو مازال يجتاز الفترة الحرجة من جراحته ، بفكاهاتها المضحكة ، وحتى الجراح الذى أجرى هذه الجراحة التاريخية نفسه ، بدأ يتحدث عن القلب الصغير الشاب الذى يتأرجح فى القميص الفضفاض ، المتخلف عن القلب المستأصل العجوز . .

وياطول ماسيلقى الشيخ واشكانسكى من لذعات أقلام الكتاب التى لا ترحم ، وياما أكثر ما سوف يجد نفسه ، وقلبه المستعار محوراً لفكاهات العالمين ! !

مسرح مظاهرات

إن القلب ليس ينبوع الانفعالات العاطفية ، ولكنه مسرح لمظاهراتها ، ومجال لترداد صدى هتافاتها القادمة من بعيد .

فالقلب ليس أكثر من مضخة ، تقوم على صغر حجمها الذى لا يكاد يتجاوز حجم قبضة إحدى يديك ، بعمل هائل ، تدفع فيه ما قد يصل إلى عشرة أطنان من الدم كل يوم إلى الشرايين ، وقد يزيد حين يتأثر القلب بالانفعالات العاطفية أو بالإرهاق البدنى الشديد .

أما منبع الانفعالات العاطفية ، والمخاوف ، والأفراح والأحزان ، فأكثره من البيئة وضغوطها المختلفة ، ومباهجها وتعاساتها الكثيرة ، وبعض منه من الجسم وآلامه ، ومن العقل ومن همومه الثقال ، يصل كل ذلك عن طريق المسالك الحسية المختلفة إلى الإدارة العامة للجسم ، والجهاز العصبى المركزى الذى يعمل بإرادتنا ، والجهاز العصبى الذى لا يخضع لهذه الإرادة ، وإنما يعمل دون وعى منا فيجعل قلوبنا تخفق حتى ونحن فى غاشية إغماء ، ويجعل جهازنا الهضمى يعمل حتى ونحن نيام ، ويجعل أحشاءنا ينهض كل منها بدوره فى هذا الجهاد المتسق العظيم الذى يقوم به فى الجسم أثناء الحياة ، ولو وقف هذا الجهاز العصبى غير الخاضع لإرادتنا ، أو أضرب عن العمل خلال لحظات من هذا الغياب المؤقت عن الوعى ، لأنبتّ العيش بنا ، ولغربت شمس الحياة . .

ويؤازر هذا الجهاز العصبى اللا إرادى فى السيطرة على انفعالاتنا العاطفية جهاز آخر معقد من بعض هرمونات الغدد الصماء ، يعمل معه فى تعاون كامل وانسجام تام .

هذا إلى أن هذه الانفعالات العاطفية وثيقة الصلة بغرائزنا الموروثة إلى حد كبير ، فالخوف وثيق الصلة بغريزة البطش والسلطان وهكذا . . .

وليس القلب فى هذه الانفعالات كلها إلا تلقى الأوامر التى تصدر إليه عن طريق الأعصاب ، ليدفع دماء أكثر إلى هذا العضو أو ذاك تبعاً لمقتضيات الأحوال .

الخوف القديم والخوف الجديد

لقد كانت هذه الانفعالات القوية تساعد الإنسان البدائى كما تساعد الحيوان ، على النجاة بحياته من بوائق الخطر والهلاك ، أو على اقتحام هذه البوائق والانتصار عليها ، والخروج منها بسلام .

أما اليوم فلم يعد فى حياتنا وحوش ، ونمط حياتنا يحتاج إلى الهدوء أكثر مما يحتاج إلى العنف ، وبعض انفعالاتنا العاطفية كانفعالات الفرح والحب انفعالات بناءة تمد فى العمر وتطيل فى الحياة . وبعضها الآخر انفعالات هدامة ، مبعثها الهموم التى تخترم الجسوم نحافة — على ما يقول المتنبى — وتشيب ناصية الصبى قبلَ الأوان ، ومنها انفعالات الحسد والحقد والبغض وأوهام المرض المسماة بالوسواس .

إن هذه الانفعالات الأخيرة إذا استبدت بنا أدت إلى مرض البدن والنفس والروح . . هضمنا يسوء ، وحياتنا تظلم ، وقلوبنا تخفق خفقان الحيوان المذعور ، وضغط دمنا يرتفع ، ونبضنا يزداد ، وقد نصاب بقروح المعدة والأمعاء ، وقد نصاب بالربو ، وقد تؤدى بنا نوبة غضب إلى نزف دماغى خطير .

إن الهم — وهو خوف مزمن — يحدث من الأمراض فى البشر

أكثر مما كانت تحدثه الوحوش كلها بالحيوان ، وأكثر مما تحدثه كل الميكروبات بالبشر فى الوقت الحاضر من أمراض !

حيرة

لقد حار البشر منذ خلقوا فى أصل العواطف وينبوع الانفعالات.

زعموا الكبد مصدرها فى البداية ، فقال شاعرهم :

ولى كبد مقروحة — من الهموم طبعاً ! . . من يبيعنى بها كبداً ليست بذات قروح !

وعزوها تارة إلى الطحال ، ولا يزال كثير من الريفيين يتحدثون عن الطحال الذى يوشك أن ينفجر من الغيظ . .

ثم أسندوها أخيراً إلى القلب لأنهم وجدوا القلب يخفق كلما انفعل الإنسان ، ووجدوا الوجنات تتضرج بحمرة الخجل ، أو تبهت من صفرة الذعر ، وللشعراء فى هذا المجال صولات وجولات حسبى فى الإشارة إليها ، أن أذكر قول إسماعيل صبرى :

أقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة

ولا بشافعة فى رد ما كانا

سلا الفؤاد الذى شاطرته زمناً

حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا

ومن العجب أنهم — حتى القرن الثامن — عشر لم يفكروا قط من هذه الناحية فى الدماغ ، وفى الجهاز العصبى ، لأنهما ظلا بعيدين جداً عن

مسرح المظاهرات العاطفية . وعن صدى هتافاتها العالية فى سائر الأعضاء والأحشاء ، كما ظلا موغلين فى التخفى وراء أسوار حصونهما العظمية المنيعة ، التى لا تسمح بالدخول لنظرات التطلع وتأملات الفضول .

شيخ أو فتاة

سواء إذن أكان قلب فتاة أم قلب رجل مسن عجوز ذلك الذى يتأرجح فى القميص الفضفاض الذى خلفته الجراحة بين جوانح الشيخ واشكانسكى ، فهو من ناحية الا نفعالات العاطفية ، إنما ينفذ الأوامر التى تصل إليه من دماغ السيد وأعصابه ، دون أن يتأثر أقل تأثر ، بطبيعة فلذة اللحم التى استعيرت له من قلب فتاة ، وتركت هناك تتأرجح فى قميص فؤاده الفضفاض .

سيظل هذا القلب الفتى ، إن عاش السيد واشكانسكى ، مجرد مضخة ، تكبس الدم فى شرايينه سبعين مرة فى الدقيقة . وتأتمر من حيث الانفعالات العاطفية بأمر الدماغ والأعصاب والهرمونات ، التى تصدر من الشيخ واشكانسكى القديم ، لا من بضعة اللحم الجديدة . المستوردة من الخارج ، والمستعارة من قلب فتاة !

* * *

ملاحظة : الشيخ واشكانسكى هو أول مريض زرع فى صدره قلب جديد ، عاش به فترة من الزمان ، ثم لفظه الجسم ، فمات .

١٥

خدعوك فقالوا :

إن تشوهات القلب ضعف فسيولجى فيه

تشوهات القلب التى يولد الجنين وهو مصاب بها . أمر شبه مألوف وليس فيه أية غرابة أو شذوذ ، وهى نوع من التشوهات العضوية العامة التى تصيب الجنين فى حياته الرحمية . سواء فى العين فتعميها ،أو فى الأذن فتصيبها بالصمم، أو فى الأمعاء أو سواها من الأعضاء فتحدث بها ماتشاء من آفات وتشوهات القلب الرحمية . سواء أكانت ثقوباً فى جدرانه الداخلية أم ضيقاً فى صماماته . أم اتصالات من أى نوع بين مجرى الدم النقى المحمل بالأوكسجين . ومجرى الدم غير النقى المحمل بثانى أكسيد الكربون . تؤلف على ما يقال حوالى خمسة فى المائة من جميع أمراض القلب فى كافة الأعمار ، والمقول إن واحداً من كل ألف من المواليد ، يولد بآفة أو أخرى من هذه الآفات، أصابت قلبه وهو جنين ، إنها آفات شائعة نسبيًّا وشبه مألوفة . والطفلة غزالة البالغة من العمر عشر سنوات والتى عثر عليها سيادة محافظ الوادى الجديد فى واحة الفرافرة مصابة بثقب فى القلب ، فحملها معه مشكوراً لتعالج فى أحد المستشفيات الجامعية ليست أولى ولا أخرى حالات التشوه الرحمى الذى يصيب عضواً أو آخر من أعضاء الجنين .

ينبوع الآفات الرحمية

إن هذه الآفات ليس مصدرها الأول – على ما قال راوى الخبر – هو ضعف القلب الفسيولوجى أو اتساع الثقوب الكائنة فيه ، والتى يجب أن تتلاشى عند الولادة أو بعدها بقليل ، فإن كل طفل معرض لها فى حياته الرحمية ، أو كل طفلة بالأحرى ، فإنها أكثر حدوثاً فى البنات منها فى الصبيان ، ولو كانت الطفلة هى السفيرة عزيزة ، أو كان الطفل هو الابن البكر لعنترة بن شداد . إن الينبوع الأول للتشوهات الرحمية فى الجنين هو إصابة الأم أثناء الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل – أى فى أثناء تكوين الجنين – ببعض الأمراض المعدية الناشئة من عدوى الفيروسات ، وأشهرها من هذه الناحية وأكثرها إسهاماً فى إحداث هذه التشوهات فى الأجنة هى الحصبة الألمانية . . إنها المجرم الأول فى هذه الجنايات على الجنين المسكين .

مرض قائم بذاته

إن الحصبة الألمانية ليست نوعاً من الحصبة ، ولا تمت لها بأية صلة أو قرابة ، فهى مرض قائم بذاته وقد يشبه الحصبة بعض الشىء فى الأعراض ولكنه أبطأ منها عدوى ، وأقل منها انتشاراً ، وأهون منها ضراوة ، وأبسط منها مضاعفات ، وليس مثلها قدرا مقدورا على الطفل فى السنوات العشر الأولى من حياته ، والطفل الذى يعدى بها

وهو صغير قد يعدى بها إذا تعرض لعدواها وهو كبير . وكل أهمية الحصبة الألمانية مستمدة من أنها إذا أصابت حاملا فى الشهر الأول من الحمل فإن فرصة إصابة الجنين بالتشوه تكون خمسين فى المائة وإذا أصابتها فى الشهر الثانى من الحمل كانت فرصة إصابة الجنين بالتشوه خمسة وعشرين فى المائة ، وإذا أصابتها فى الشهر الثالث كانت الفرصة أقل وفى الشهر الرابع تهبط الفرصة إلى حوالى عشرة فى المائة ، أما بعد الشهر الرابع فالأغلب ألا يصاب الجنين بأية تشوهات .

بلاوى

وقد يشبه الحصبة الألمانية فى هذه الناحية مرض النكاف الوبائى ، وهو التهاب فيروسى يصيب الغدة اللعابية النكفية التى تحيط بأسفل الأذن من جميع الجهات . . إن هذا المرض يشبه الحصبة الألمانية من حيث إنه ليس شديد العدوى ، وإنه لا يصيب كافة الأطفال فى مرحلة الطفولة ، وإنه قليل المضاعفات فى الأطفال ، وإن الطفل الذى ينجو منه قد يصاب به على كبر ، وقد يورثه حينئذ كثيراً من مضاعفات الغدد الصماء ، ولا سيما الغدد الجنسية وغدة البنكرياس ذات العلاقة الوثيقة بمرض السكر . وقد يشبه الحصبة الألمانية كذلك فى أنه إذا أصاب حاملا فى الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل ، قد يعرض الجنين لبعض التشوهات .

لو . . حرف امتناع

ولو كنت مشرفاً على الصحة المدرسية فى هذه البلاد لوقفت كافة الإجراءات التى تتخذ فى المدارس الابتدائية بالذات ، لحماية الأطفال من عدوى الحصبة الألمانية والنكاف . إنهما مرضان يجب أن يشجع كافة أطفال المرحلة الابتدائية على الإصابة بهما فى هذه السن الآمنة من مضاعفات المرضين ولا سيما فى مدارس البنات .

متاعب الإشعاع

ثم إن الأمراض المعدية ليست وحدها سبباً فى إحداث تشوهات الجنين . إن تعريض الحامل فى الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل للإشعاع السينى ، سواء بقصد تشخيص الأمراض أو علاجها ، يمكن أن يؤدى هو الآخر إلى تشويه الجنين . وربما كان الإشعاع الذرى أسوأ إيذاء من الإشعاع السينى للجنين ، هذا بطبيعة الحال . إذا أعفى الحامل من الموت مع كل شىء يموت ، أو أعفاها من العقم إذا عاشت ، أو من التعاسة الأبدية فى كل الأحوال .

يحييها وهى رميم

وعلى أية حال فإن تشوهات القلب الرحمية إن كان بعضها لا يتفق مع الحياة ، فإن أكثرها ولاسيا الثقوب التى تبطئ فى الانسداد طيّعة للعلاج وقابلة للشفاء على مبضع الجراح . وحوال ثمانين فى المائة من الأطفال المثقوبى القلوب ، والذين يعالجون بمبضع متخصص ،

ينالون الشفاء ، ويعودون إلى الحياة الطويلة المثمرة كأن لم يكن بين قلوبهم وبين الموت غزل سابق أو ودّ قديم .

إن الطفل الذى يلهث عند أقل مجهود . والطفل الأزرق اللون ، والطفل الذى فى قلبه لغط ، والطفل المتضخم القلب ، والطفل الضعيف النمو ، كل هؤلاء يجب أن يعرضوا على طبيب متخصص فى أمراض القلب ، فقد تكون فرصة الشفاء أمامهم — إذا كانوا مرضى بالتشوهات الرحمية فى القلب — أكبر وأضمن من فرصة الشفاء من الإسهال . والحامل التى يمرض فى بيتها طفل بالحصبة الألمانية أو النكاف الوبائى ، أو أى مرض فيروسى من أمراض الطفولة ، يجب أن تستشير طبيبها فإن « ترسانة » الطب فيها أسلحة تستطيع إنقاذ الحامل من الإصابة بهذه الأمراض ، فإن أصيبت بالمرض برغم ذلك فالخير أن تجهض منعاً « لوجع القلب » فى المستقبل، وجع قلبها هى ، ووجع قلب الطفل البرىء إن الإجهاض فى هذه الحالة إجهاض شرعى ، ومرخص به مادامت الآراء الطبية متفقة على دواعيه .



١٦

خدعوك فقالوا :

إن صورة القاتل . . . تنطبع فى عين القتيل

إن العين البشرية تشبه آلة التصوير من بضعة وجوه ، فإن لها عدسة كعدستها ، وحجاباً حاجزاً للضوء مثلها ، وشبكية تشبه لوحها الحساس لالتقاط صور المرئيات ، ولكن الشبه بين الاثنين ينتهى عند هذه الحدود فصور المرئيات تقع على شبكية العين كما تقع على اللوح الحساس فى آلة التصوير ، ولكنها لا تنطبع عليها وإنما تنتقل منها كصور وهمية لا قيمة لها ولا حقيقة ، عن طريق الأعصاب ، فتصل إلى المخ بطريقة معقدة ، ويقوم المخ بترجمة الصورة الوهمية ، وتحميضها وتثبيتها ، واختزانها فى الذاكرة إن كانت من القيمة أو الروعة أو الجمال بحيث تستحق الاختزان فى سجل الذكريات .

فالمخ إذن هو الذى يرى المرئيات التى تقع على شبكية العين ، وليست العين إلا مجرد وسيط لنقل المرئيات .

وعلى هذا الأساس يكون انطباع صورة القاتل فى عين القتيل خرافة ضخمة ، ابتدعها مؤلفو القصص البوليسية ليضفوا على قصصهم شيئاً من الروعة ، وليحلوا مشاكلهم القصصية بطريقة يعيا عن توقعها واستنتاجها خيال القراء .

وقد انتشرت هذه الخرافة فى مثل هذه القصص منذ بداية هذا القرن،

وكثر تداولها فى السوق ، وقيل إن القتيل يحتفظ فى شبكية عينه بصورة من وجه القاتل ، بالوضع والملامح التى شاعت فيه أثناء ارتكاب الجريمة . وأن أخذ صورة فوتوغرافية لعين القتيل ،وتكبيرها ، قد يكون هو الأثر الوحيد الذى يقودنا إلى الإمساك بتلابيب المجرم ، عندما يزيل كل بصمات أصابعه من أكر الأبواب ، ويتخذ كل الاحتياطات لإثبات وجوده فى مكان غير الذى ارتكبت فيه الجريمة ، وفى الوقت الذى ارتكبت فيه .

بل إنه فى إحدى الجرائم التاريخية المشهورة فى ذلك الحين ، وفى إنجلترا بالذات ، اشتد تنديد الجمهور برجال سكوتلانديارد ، عندما تبين فى أثناء المحاكمة أن البوليس لم يصور عين القتيل !

وتحت هذا الضغط قامت إدارة المباحث فى سكوتلانديارد بعمل تجارب واسعة النطاق ، لوضع هذه الخرافة فى ميزان الامتحان ، وراحت تصور أعين القتلى كلما حدثت جريمة من هذا القبيل ، وبآلات فوتوغرافية فى منتهى الدقة والكمال ، فلم يتبينوا أية صورة للقاتل فى جميع الأحوال .

إن شبكية العين . المكونة من غشاء عصبى شفاف فى الحياة ، كانت توجد فى كل مرة ، وقد فقدت شفافيتها تماماً بعد الموت ، ولم تعد تقرأ عليها أية قصة من تلك القصص الرائعة التى مرت بها طول الحياة .

والعين على أنها آية باهرة من آيات الله ، بارعة التكوين ، هائلة الإعجاز ، إلا أنها إذا شبهت بآلة التصوير المعروفة كانت من أتفه

آلات التصوير . ولقد قال ثقة من ثقات الآلات البصرية : « إنى لو بيعت لى آلة تصوير فوتوغرافية كالعين البشرية ، لرددتها إلى بائعها بعد أول تجربة ، وطالبته بتعويض » .

فى كل آلة تصوير جيدة ، أو ميكروسكوب ، أو تلسكوب نتوقع أن نرى العدسات متناظرة تماماً فى الشكل والقوة ، ومبرأة من كل العيوب ، وما هكذا الشأن فى عدسات العيون ، وما يقال عن العدسة يمكن أن يقال عن الحجاب الحاجز للضوء ، وعن الشبكية واللوح الحساس ومع ذلك فإن كل خلية من خلايا العين فيها من آيات العبقرية والإعجاز مالا يوجد عشر معشاره فى أى جهاز بصرى ابتدعه البشر ، وفى عملها من السحر والعظمة مالا يوجد له نظير فى أى تلسكوب أو ميكرسكوب لا لشىء إلا لأنها حية ، ولأنها من صنع الله .

إن هذه الآلة الفوتوغرافية على كمالها ووفائها بحاجات الرؤية للإنسان لا تستطيع أن ترسم صورة قاتل على عين قتيل ، لأنها لم تعد لهذا الغرض التافه ، وقد تفوقها فى هذه الناحية آلة تصوير لا يتعدى ثمنها عدة قروش !



١٧
خدعوك فقالوا :
إنّ دمك شربات

قد يتقاطر الشهد منك ظرفاً ولطفاً وخفة . ولكن دمك لا يمكن أن يتحول إلى « شربات » أبداً ، وإلا فطست فى الحال ، فإن قلبك يكف حينئذ عن الخفقان ، ويعيا تماماً عن دفع هذا الشراب اللزج الثقيل فى الشرايين ، إذ أنّ القلب خلق ليتعامل مع دم سائل خفيف لطيف ، لا مع سائل لزج كثيف ، ولو كان فى حلاوة« الشربات » .

إن دمك فى حالة الصحة يحتوي على مقدار صغير من السكر ، يكاد لا يتغير ، وإن كان يتذبذب علوًّا وانخفاضاً حول مائة ملليجرام فى كل مائة سنتيمتر مكعب من الدم ، وذلك عند قيامك من النوم .

ولما كان ذلك يبلغ حوالى خمسة لترات . فمعنى ذلك أن كل مافى دمك من السكر فى هذه اللحظة لا يزيد كثيراً على ملعقة شاى من السكر « السنترفيش » وهذا المقدار التافه لا يمكن بحال أن يحيل دمك إلى شربات ! !

وحتى بعد أن تتناول وجبة من وجبات طعامك ، وذلك هو الوقت الذى يرتفع فيه منسوب السكر فى الدم إلى أقصى ما يصل إليه فى حالة الصحة ، فإن قصارى ما يبلغه السكر فى دمك حينئذ لا يصل إلى مثتى ملليجرام فى كل مائة سنتيمتر مكعب من الدم، أى أنه يصبح أقل من

ضعف ما كان فى حالة الجوع حين قيامك من النوم ، ولو ترجمنا هذه الزيادة إلى ملاعق ، لوجدنا أنها تمنحك ملعقة شاى أخرى فوق الملعقة التى كانت فى دمك من السكر فيصبح كل مافى دمك ملعقتى شاى من السكر ، وهو مقدار لا يكفى لتحلية فنجان من الشاى ، ولا يمكن بطبيعة الحال أن يجعل دمك شربات ، حتى لو كنت نجيب الريحانى أو أمين الهنيدى أو من شئت من نجوم الفكاهة ، وأصحاب الدم الموصوف بأنه دم شربات ...

حسبة برما

إنك تأكل فى الوجبة الواحدة من المواد النشوية والدهنية والزلالية ، وهى المواد القابلة للتحول فى الجسم إلى سكر ، ما قد يصل فى الوزن إلى كيلوجرام من السكر أو يزيد. وهذا المقدار لا يخرج من جسمك كسكر فى حالة الصحة قط ، فإذا كان كل ما بقى منه فى الدم لا يزيد على ملعقتى شاى فأين ذهب باقيه ؟

إن الذى يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال هو البنكرياس ، أو البنقراس ، أو « الحلويات » وهو إحدى الغدد الصماء التى تفرز الهرمونات وهرمون البنقراس الأكبر هو الأنسولين المعروف .

إن مصنع الأنسولين لا يكاد يحس أثر زيادة السكر فى الدم حتى تدق فيه أجراس الخطر ، فينشط إلى إنتاج الأنسولين ، وصبه فى الدم بالمقدار الذى يتناسب وزيادة السكر فيه ، فيساعد الأنسولين على

دفع السكر الزائد إلى الأنسجة ، حيث يستعمل وقوداً هناك لإنتاج الحرارة اللازمة لتدفئة الجسم من جانب ، ولإمداده من جانب آخر بالطاقة والقدرة على العمل والحركة والنشاط ، وبدون الأنسولين لا يتم هذا الاحتراق ، وهو بعض ما يحدث فى مريض السكر أو الديابيط .

فإذا زاد من السكر شيء على حاجة الأنسجة إلى الوقود فإن الأنسولين يساعد على تحويل هذه الزيادة إلى نوع من النشا الحيوانى ، قابل للاختزان فى الكبد والعضلات ، كرصيد للسكر ، يسحب الجسم منه حاجته فى غير أوقات الطعام . . فإن بقى من السكر فضل بعد ذلك فإن الأنسولين يحيله إلى دهن ، كما يحدث فى الأشخاص النهمين ، الذين يزيد السكر فى طعامهم على حاجات الاحتراق والتخزين ، ويترتب هذا الدهن الكثيف تحت جلودهم ، وفى كروشهم ، وبين الأحشاء ، مضيفاً من الشحم تلالا إلى تلال . ! .

حلقة أخرى فى قصة السكر . .

هذا جزء من قصة السكر فى الدم وما يفعله فيه الأنسولين . .ولو ظل الأنسولين يفعل فعله هذا فى سكر الدم لما بقى من هذا السكر شيء... حتى ملعقة الشاى البسيطة التى رأينا أنها فيه باستمرار ، كانت حرية أن تذوب هى الأخرى ، وتتركك مقطوع الصلة نهائياً بالشربات ! !

بيد أن كل نشاط فى الجسم له ضابط ، وضابط الأنسولين هرمون آخر من هرمونات الغدد الصماء . . .

نعم ، إن نقص منسوب السكر فى الدم يدفع مصنع الأنسولين إلى التوقف عن العمل ، حتى لا يرسل إلى الدم فيضاً جديداً من هذا الهرمون ، ولكن الجزء الذى يكون باقياً منه فى الدم يكفى لو ترك على حل شعره لخلخلة منسوب السكر ، وما يؤدى إليه ذلك من شعور بالضعف ، والانهيار ، وارتعاش فى الأيدى ، واهتزاز فى الركب وغزارة فى العرق وخفقان فى القلب ، وهى الأعراض التى يعرفها كل مريض بالسكر ، يعالج بالأنسولين ، حين تزيد جرعة الدواء على الحد المقرر فتخفض منسوب السكر فى الدم عن مستواه الطبيعى المألوف . . .

إنها الأعراض التى من أجلها يحمل كل مريض من هذا النوع قطعة من الحلوى فى جيبه ليستعين بها على تعويض ما نقص من سكر الدم عن هذا المنسوب .

ولكيلا يحدث ذلك ينبرى هذا الهرمون الآخر لبقية الأنسولين الموجودة فى الدم والزائدة على الحاجة فيبطل عملها ، ويحفظ منسوب السكر فى الدم حيث ينبغى أن يكون ، أى ملعقة صغيرة من السكر لا يمكن أن تحيل دمك إلى شربات ، ولو كانت من السكر النبات ! !

الوجه الآخر للصورة

لكن ماذا يحدث لسكر الدم إذا تعطل إفراز الأنسولين أو تعرقل

لأى سبب من الأسباب ؟ .. وتعرقل تبعاً لذلك احتراقه فى الأنسجة واختزانه هناك ؟

يحدث مرض السكر أو الديابيط كما يسمى بطبيعة الحال . .

وفيه يرتفع منسوب السكر فى الدم ، من مائة ملليجرام إلى مائتين ، وربما إلى ثلثمائة أو أربعمائة ملليجرام فى كل مائة سنتيمتر مكعب فى الدم . . . . ومع ذلك ، فإن دمك لا يتحول حتى فى هذه الحالة إلى شربات ، وأن مقدار السكر الذى يكون فى الدم حينئذ لا يتعدى أربع ملاعق شاى . . إن الذى قد يتحول فى هذه الحالة إلى شربات قد يكون بول المريض ، لأن السكر الذى لا يحترق فى الأنسجة ولا يختزن ، تنفضه الكلى إلى الخارج مع البول ، مع مقدار كبير جداً من الماء ، وتلك عرض من أعراض مرض السكر . . ولكن ليس هذا كل شىء فى هذه الأعراض .

إن هذا المقدار الكبير من الماء الذى تستعمله الكلى فى إذابة هذا السكر ونفضه فى البول ، يحتاج إلى تعويض ، فيحس المريض عطشاً دائماً وهو عرض آخر من أعراض المرض . . . بول غزير وشرب ماء كثير .

قراية كتير وذمة مفيش !

ثم إن الأنسجة التى فقدت جرايتها من الطعام والوقود تضمر وتضمحل ويصاب المريض الذى يكون بديناً فى العادة بالهزال ، ويفتر نشاطه

وتضعف قواه . وتقل مقاومته للأمراض . . .

ولكن هذا الهزال مع ذلك يصحبه شعور دائم بالجوع ، وشهوة دائمة إلى الأكل ، كأنما هى صرخة استغاثة من الأنسجة التى حرمت الطعام . . وهكذا يصبح المريض من كثرة الأكل، وقلة بركته أشبه ما يكون بالقطط . . . « قراية كثير وذمة مافيش!! » كما يقولون...

وإذا لم يعالج المريض ، فقد يحدث له مع مرور الزمن كثير من المضاعفات التى يهدد بعضها الحياة .

قليلا من التواضع يا أخى

ولما كنت لا أتحدث هنا عن مرض السكر ، وإنما أتحدث عن دمك الشربات ، فإنى أترك السكر جانباً لألتمس منك قليلا من التواضع يا أخى ، وشيئاً من الاقتصاد فى التظرف ، فإن دمك مهما كنت حتى ولو كنت مريضاً بالسكر ، هيهات أن يكون «شربات» !



١٨

خدعوك فقالوا :

ضغط الدم يساوى السن مضافاً إلى مائة

ضغط الدم فى الكائن البشرى — وهو فى عنفوان صحته — لا يخضع لمقياس ثابت ؛ وهو يختلف فى شخص عنه فى آخر ، مع تكافؤ السن والبيئة والظروف ، ويتراوح تراوحاً طبيعياً بين هذا وذاك؛ فى حدود يرمح فيها الحصان ، بل إنه يتذبذب بين العلو والهبوط ، فى الشخص الواحد ؛ وفى اليوم الواحد عدة مرات ، وهو أشبه ما يكون بأسعار القطن فى بورصة يعتادها كثير من عوامل التقلب . .

إنها بورصة تكرم أحياناً ، وتلؤم أحياناً ، وتستغل إلى حد ما جهلنا ببعض أركانها وبعض عملياتها التى لا تزال حتى اليوم متشحة بالظلام ، بيد أن حزب الصعود فيها مع ذلك يتألف من الوراثة المعتلة ، والشيخوخة المرهقة ؛ والبدانة ، والإفراط فى تلبية نداء النزوات ، والقلق العصبى والاندفاع وراء بروق المطامع بلا عقل ولا زمام . .

كما أن حزب النزول يتكون من المعيشة الهادئة ، والمزاج المعتدل ، والتوسط ؛ وإكرام الجسم بمنحه حقه الطبيعى فى النوم ، والرياضة والاسترخاء بعض ساعة فى وسط النهار ،والمتعة الصافية براحة الأسبوع وعطلة العام ، والنظر إلى الحياة بعين الفيلسوف الذى يجدها أحقر من أن يبكى على لبنها المسكوب ، وفوق هذا كله تجاهل ضغط الدم كلية ؛

ونسيانه إذا أمكن . وتجنب سؤال الطبيب — إذا فحصه — عن مقداره ومداه ! !

إن الوعى المرهف لأرقام ضغط الدم وتذبذبها الطبيعى ، كثيراً ما كان هو نفسه عاملا من عوامل الصعود فى هذه البورصة ، وكثيراً ما خلق مرضى بضغط الدم المرتفع ، من أشخاص كانوا خلقاء بالصحة والعافية والمتعة ، أو لم يندفعوا وراء دعوة الا نتحار الصامتة ، المنبعثة من جهاز الضغط الأخرس ، التى لا يسمعها ولا يلبيها إلا عبيده الأرقاء .

ولقد عرفت رجلا من أفذاذ هذا البلد ، كان يسجل ضغط دمه كل يوم ، فمازال به الجهاز الأخرس حتى قتله فى بضعة أعوام ؛ أحوج ما كانت إلى شمسه الساطعة سماء هذه البلاد .

لعله كان من الخير للبشرية لو لم يعرف هذا الجهاز ، الذى إن كان قد أعان الطبيب كثيراً على تشخيص وعلاج بعض الأمراض ، فإنه لسوء الحظ قد استعبد البشرية لعنصر مبتكر من عناصر القلق النفسانى ووضع على عاتقها حملا ثقيلا من المخاوف والأوهام .

فى سنة ١٧٠٨ أوثق الراهب الإنجليزى « ستيفن هيلز » مهرته وهى راقدة على ظهرها ، وأدخل فى شريان فخذها أنبوبة من النحاس ، وصلها بأنبوبة من الزجاج ، فوجد دم المهرة يرتفع فى الأنبوبة الزجاجية حتى يصل إلى علو ٢٥٠ مليمتراً ، فأدرك أن الدم فى شرايين الحيوان واقع تحت ضغط معين .

وبعد مائة وخمسين عاماً من هذا الاكتشاف كان الجراح الفرنسى

« فيفر » يوشك أن يبتر ذراع مريض ، فخطر له أن يعيد تجربة الراهب الإنجليزى على الذراع البشرية الموشكة أن تبتر فأدخل فى شريانها أنبوباً ، وصله بمانومتر زئبقى ، فوجد أن ضغط الدم فى الشريان يعادل مائة وعشرين مليمتراً من الزئبق .

وفى سنة ١٨٥٥ حاول طبيب ألمانى أن يقيس ضغط الدم البشرى فى الشرايين بإيجاد مقدار الضغط الكافى لوقف مسرى الدم فيها من الخارج ؛ دون حاجة إلى فتح الشريان ، ولكنه فشل فى إيجاد جهاز مناسب ، وإن كانت فكرته تحققت على يد « سيبيان ريفا روتشى » الإيطالى الذى اخترع جهازاً لقياس الضغط على أساس النظرية الأخيرة وهو الجهاز الذى يحمله اليوم كل طبيب فى حقيبته بتعديل طفيف ، وهو نفس الجهاز الذى منذ عرف ازدادت معارف الطبيب ، وازدادت معها متاعب البشر ، وازدادت مخاوفهم ، وازداد شعورهم بأشباح الموت الراقصة على مسرح الحياة .

عرفت مرة سيدة اشترت راحتها وسعادتها بقطع خط التليفون فى بيتها وما أحرى كثيراً منا بأن يشتروا من نفس السوق راحتهم وصحتهم عن طريق قطع صلتهم بجهاز ضغط الدم — أو بأرقامه على الأقل — التى تنعب فى بعض الأحيان نعيب البوم والغربان ! !

١٩
خدعوك فقالوا :
إن الدبابيس والإبر تسرى فى الجسم مع الدم

جاءنى صديق يلهث وفى وجهه قلق وفى صوته بوادر مأساة يقول لى إن ولده قد ابتلع دبوساً من دبابيس الشعر ، وإنه حائر لا يدرى ما يصنع فقد سمع عن الدبابيس والإبر التى تخترق الأمعاء وتسرى مع الدم وتذهب إلى القلب ، وتنغرس فيه ، ويكون من أمرها مالا بد أن يكون . . وضحكت لصديقى وقلت له إنه لا داعى للحيرة ولا للقلق ، وإن خير ما يصنع هو أن ينتظر مطمئناً نزول الدبوس من بطن ولده ، فإنه نازل لا محالة ، وفى الحالات النادرة جداً يتعرقل مرور مثل هذه الأجسام الغريبة فى المعدة والأمعاء بحكم أنها كبيرة الحجم ، أو مدببة أو ذات زوايا حادة تجعلها تنحشر انحشاراً فى بوغاز من بواغيز الأمعاء ، والأشعة كفيلة بإظهار مكانها دائماً ، وإزالتها يسيرة على الجراح فى أغلب الأحوال .

ثلاثة « بلاليع »

ثمة ثلاث طوائف من الناس تتعرض لابتلاع هذه الأقذاء : الأطفال والمجرمون والمجانين . وابتلاع هذه الأقذاء الغريبة لا يحدث دائماً عن طريق السهو أو الخطأ كما هو المتوقع ، ولكن الدوافع فيه

متعددة بتعدد نفسيات من يبتلعونها وأعمارهم ، فالفئة الأولى وهي فئة الأطفال الدافع فيها عادة هو الجهل التام بنتائج هذا العمل ، وأكثر ما يبتلعونه قطع النقود الصغيرة والدبابيس ، وقد يكون الدافع أحياناً إخفاء هذه الأشياء عن عيون الآباء إذا اتهموهم بسرقتها ، وقد يبتلعون بعض هذه الأقذاء مع الطعام عفواً . . وقد روى لي أحد الجراحين أن المرة الوحيدة التي دعي فيها إلى إسعاف طفل من هذا القبيل ، كان المصاب فيها طفلا في الثامنة ، أكل قطعة كبيرة من اللحم – ولعله ازدردها ازدراداً ، وكان بها شظية حادة من العظم ، فمرت بسلام في المرئ والمعدة والأمعاء ، ولكنها انحشرت في آخر مرحلة من مراحل سفرها الطويل ، وأزيلت بجراحة بسيطة دون أن تنشأ منها أية أضرار .

أساتذة « البلع »

وأساتذة بلع الأجسام الغريبة هم الفئة الثانية : فئة المجرمين . . . وكثيراً ما يلجأ هؤلاء إلى هذه الوسيلة ليتخلصوا من المسروقات الثمينة التي يضبطون بها أو الأحجار الكريمة ، أو المخدرات . . . وفي الحالة الأخيرة – المخدرات – لا ينشأ الخطر منها لأنها أجسام غريبة داخل المعدة أو الأمعاء ، ولكن لأنها سموم قد يؤدي ابتلاعها إلى الموت من أقصر طريق . . . بيد أن بعض المجرمين من تجار المخدرات يخفيها في أسطوانة معدنية صغيرة ويلحمها ثم يبتلعها إذا ضبط بها أو يخفيها في الأمعاء ، اعتماداً على أنها ستمر بسلام ، ولكن الأقدار كثيراً ما تتدخل لغير

مصلحة الفاعل فى مثل هذه الظروف . ولقد روى لى الأستاذ الدكتور محمد عمارة أستاذ الطب الشرعى فى جامعة القاهرة مأساة شخص من هؤلاء الأشخاص ابتلع أسطوانة من هذه الأسطوانات ، فى أثناء ضبطه ، ولكن القرائن كانت قوية ضده ، فقبض عليه وقدم للمحاكمة . وفى أثناء الجلسة اتصل بأهله وأخذ منهم خمسة قطع نقود فضية من ذوات الخمسة القروش ، وعشرين قطعة من ذوات القرشين ، وساعة جيب صغيرة ، وابتلعها كلها ليستعملها فى السجن رشوة للحراس واتجاراً مع الزملاء فى السجائر والحلوى كما يحدث كثيراً فى هذه الظروف . ولقد كان خليقاً بأن يحقق كل ماأراد لولا تدخل الأقدار ؛ فقد مات المتهم فى اليوم التالى ، ووجدت هذه الأشياء فى بطنه أثناء التشريح ، ولكنها لم تكن مطلقاً سبب الوفاة ، وإنما كان السبب أن الأسطوانة التى فيها المخدرات موضوع الجريمة ، وكانت تحمل ثلاثين جراماً من الأفيون، ذاب لحامها فى الأمعاء ، فتحرر بعض الأفيون منها وقضى عليه .

عين الطبيب

ولقد يلجأ بعض المجرمين للتخلص من حياة السجن بابتلاع موسى من أمواس الحلاقة أو مقدار كبير من الدبابيس ومنهم من يحاول بالطريقة نفسها أن يحتال على أطباء السجن لينقلوه إلى المستشفى ، فيتمتع ولو إلى حين ، بامتيازات المرضى فى الراحة والطعام ، بل إن بعضهم يحاول الوصول إلى الهدف نفسه ، ولكنه يخشى مغبة ابتلاع الدبابيس والأمواس

فيدعى أنه ابتلع شيئاً من ذلك ادعاء ، وعندما يؤخذ للأشعة يضع موسى فى جيبه ، أو ورقة دبابيس اعتماداً على أنها ستظهر فى الأشعة بجوار الأمعاء وتخدع الطبيب ، فإذا عملت له جراحة كان هذا هو عين المطلوب . ولقد سمعت أن أحد أساتذة الأشعة وقع له حادث من هذا القبيل مع أحد المجرمين ، ولكن موضع الدبابيس فى صورة الأشعة استلفت نظره فيه أنه بعيد عن الأمعاء . . فعرى السجين من ملابسه وصور له صورة أخرى فظهرت فيها الدبابيس ولكن فى موضع آخر ، فلما صور المجرم صورة جانبية اتضح أن الدبابيس فى جدار البطن ولا علاقة لها ألبتة بالأمعاء . وبالبحث وجد أن المجرم كان مستعداً لكل هذه الاحتمالات فلما خلع ملابسه غرس الدبيس غرساً فى جلد ظهره ليبعدها عن عين الطبيب !

الجنون فنون

أما المجانين فلهم فى هذا الباب نصيب كبير . . وكثيراً ما توجد فى معدات بعضهم بعد الوفاة العارضة ملاعق وشوك وسكاكين وقطع من الزلط والزجاج وأطقم أسنان ضاقت عنها بوابة المعدة فظلت فيها شهوراً أو سنين ، قبل الوفاة . . ولقد وجد ذات مرة فى بطن أحدهم « ورشة » مكونة من أربع وثلاثين قطعة منها مسامير ، وصواميل ومفاتيح ومفكات ، ولقد عرفت فى الريف رجلا أبله ابتلع ذات يوم عشر قطع من

« القروش الخردة » التى كانت تستعمل فى النقد قديماً ، وكان حجمها مثل حجم الريال الفضى المعروف ، ومرت كلها بسلام !

الإبر القاتلة

لقد كان الاعتقاد فى الإبر والدبابيس قديماً أنها أجسام طوافة فى الجسم تنتقل حرة من مكان إلى مكان ، بحكم حركة العضلات . . ولكن الحالات النادرة جداً التى وجدت فيها إبر فى أماكن خطرة يمكن عدها على الأصابع . . وأكثر ما يحدث مثل هذه الإبر – ولا سيما إبر الحقن التى تنكسر فى موضع الحقن ، ولم تكن ملوثة بميكروبات – أن تظل فى مكانها أو تتحرك حركة ضئيلة فى محيط صغير . ولقد روى لى من لا أشك فى روايته أن المرحوم الدكتور على إبراهيم انتقل إلى رحمة الله وفى جسده إبرة حقنة مقصوفة ظلت فيه أكثر من عشرة أعوام . . ولقد انكسرت فى رأسى ذات يوم إبرة حقنة غليظة فى أثناء جراحة صغيرة ولم أعرف ذلك إلا بعد بضعة أشهر عندما أحسست بشىء يخزنى فى داخل خدى كلما تثاءبت أو ضحكت . . ولما طال الأمر واشتدت مشاكسة هذا الواخز السخيف ، صورت خدى بالأشعة فوجدت فيه إبرة غليظة طولها ثلاثة سنتيمترات !

٢٠
خدعوك فقالوا :
إن حمل خمسة أشهر يمكن أن يعيش !

الناس مولعون بأخبار العجائب . . . كل عجيبة تولد وتكبر وتترعرع فى الأذهان من طول التكرار وتهويل المبالغات ، ثم تنطوى زوبعتها بعد حين ، لأن الناس قلما يصبرون على طعام ، وسرعان ما تظهر عجيبة أخرى فتنزوى الأولى ، وتتقهقر مغلوبة على أمرها إلى زاوية من زوايا النسيان .

ولكن الويل للعجيبة التى تنسى هذا التسلسل الواجب فى التاريخ الطبيعى للعجائب ، فتولد وسابقتها مازالت جالسة فى عنفوان مجدها على العرش ، والتاج على رأسها يتلألأ بما يضاف إليه كل يوم من نفائس الواقع أو ذخائر المبالغات .

من هذه العجائب التعسة الحظ عجيبة ولدت واهتمام الناس موزع بين أمريكا وبين جنوبى أفريقيا ، يتابعون باهتمامهم معجزات زرع القلوب الشابة فى صدور شيوخ انهارت قلوبهم .

ولدت هذه العجيبة المسكينة فى هذا الزحام ، فلم تجد قابلة ترعاها ، ولا حاضنة توطئ لها مهد البقاء والنماء .

فى المشرحة

وتبين من تشريح جثة هذه العجيبة السيئة الحظ أن سيدة من باب

الشعرية — والفاتحة لسيدى الشعرانى — وضعت ثلاثة توائم ، وأن السيدة اسمها كذا ، وأن توائمها الثلاثة فى صحة جيدة ، وأن من قام بعملية التوليد هم — بالأمارة ! — أطباء المستشفى فلان وفلان وفلان . . .

ولا بد أن كل توأم حمل اسم طبيب من الفرسان الثلاثة المولدين !

إن العجيبة ليست فى أن هذه السيدة التى من باب الشعرية وضعت ثلاثة توائم . . . كلا . وليست العجيبة فى أن التوائم الثلاثة يعيشون فى صحة جيدة . .

لا تثوى العجيبة هنا ولا هناك ، ولكن مثواها فى أن الحمل الذى أسفر عن هذه الذرية الصالحة لم تزد مدته على خمسة أشهر ، وهى مدة للحمل المنجب لا تقبلها ذمة أى طب فى العالم ، ولا تهضمها معارف أى طبيب لا فى مستشفى باب الشعرية ولا فى مستشفى واق الواق . .

إن من المعارف العامة أن الجنين الذى يولد قبل استكمال الشهر السادس من الحمل غير قابل للحياة ، ولا حتى بالعكاكيز .

إن مواليد نهاية الشهر السادس نفسه يولدون فى العادة موتى ، أو يولدون أحياء ولكن شعلة الحياة تنطفئ فيهم على الفور دون أن يتسع لهم الوقت لتسجيل أية معجزات ، أو الاشتراك فى مواكبها ، أو وضع أكاليل الغار على رءوس هذا أو ذاك من الأطباء ! !

دبيب الحياة

نعم ، إن النطفة التى تحولت إلى علقة ، ثم مضغة خلال الأشهر

الأولى من الحمل ، تدب فيها الحياة وهى تتخلق . . . فيخفق قلب الجنين فى منتصف الشهر الرابع ، وحوالى نفس الوقت يرتكض الجنين فى بطن أمه تلك الارتكاضة الحلوة التى تملأ سماء الأم بالمنى والأحلام . .

إن الجنين حى . . نعم ! ولكن حياته حينئذ تكون حياة الكائن المعتمد على سواه ، وليست حياة المخلوق المستقل الذى يستطيع إذا ولد أن يجاهد فى سبيل البقاء . .

إن الصلة التى تربطه بأمه يومئذ لا تكاد تنقطع حتى يموت . . إنه غير قادر على مواجهة جو الحياة القاسى ، ولا هو مسلح بأى سلاح لهذا الجهاد الشاق . .

إنما تبدأ فرص الحياة فى الظهور أمام المولود الخديج — وهو المولود قبل الأوان — حين يكمل الشهر السابع من حياته الرحمية . .

فإذا بلغ الشهر الثامن كانت هذه الفرص أقوى وأكبر . .

إن كل يوم يضاف إلى العمر الرحمى للجنين بعد الشهر السابع ، يزيد من فرص الحياة أمام المولود ، ويضيف إلى رصيد الأمل فى حياته — إذا تساوت الظروف — ويسجل له نقطة فى حساب البقاء .

مسألة وزن

مع ذلك فإن المولود الخديج حتى لو كان عمره سبعة أشهر أو ثمانية لا توجد لديه فرصة للبقاء إذا قل وزنه عن كيلو جرام واحد ، مقارناً بالكيلوجرامات الثلاثة والنصف التى يزنها الجنين المكتمل الحمل والصحة.

فإذا زاد وزنه على كيلو جرامين ونقص عن الثلاثة احتاج لكى يعيش إلى رعاية خاصة من الأم تحميه من عوادى الجو . ومن أخطاء التغذية ، ومن قذارة المحيط . .

أما إذا كان بين بين ، فإن حياته تصبح مرهونة بالرعاية الطبية التى تتولاه بالعناية الدائمة .

هول القيامة

وأياً كان الأمر فإن حكاية توائم باب الشعرية الثلاثة وتلوينها بهذه الصبغة الزائفة من أصباغ الأعاجيب ، قد صادفها سوء حظ كبير حين ولدت فى زحمة الأحداث ، أحداث القلوب المزروعة من جانب ، وأحداث ضيافة الرئيس جونسون للخواجة أشكول من جانب أخر ، وقصة غرامهما العجيبة التى فاقت قصة غرام دليلة وشمشون .

لقد ولدت لسوء حظها ميتة .

وانطبق عليها قول شوقى :

من مات فى هول القيامة لم يجد
قدماً تشيع أو حفاوة ساعى ! !



الباب الثالث

فى العدوى والأمراض المعدية



٢١

خدعوك فقالوا :

إن التطعيم واق من الجدرى فى كل الأحوال

نستطيع اليوم أن نسمع عن وجود إصابات بالجدرى . فلا يرتعش لنا عصب أو نحس بالذعر الذى كان يحسه أجدادنا الأوائل عندما يدهمهم مثل هذا النذير .

إن هذا الوباء الذى تقاسم هو والطاعون فى القرن الثامن عشر لقب « الموت الأسود » والذى هزأ ميكرو به بالعالم عدة قرون منذ فجر التاريخ قد حطم مخاليه القاتلة طبيب قروى صغير عاش فى أوائل القرن التاسع عشر فى قرية صغيرة من قرى إنجلترا ، فدان العالم بذلك اللقاح الباهر الذى أصاب الجدرى فى مقتل ، والذى اكتشفه قبل أن تعرف جرثومة المرض، وقبل أن يدرك البشر قليلا أو كثيراً من جراثيم الأمراض . . .

قدم التاريخ

إن الجدرى مرض قديم قدم التاريخ ، وقد وجدت آثاره البشعة على وجوه موميات الفراعنة ، ولكنه لم يفض على العالم كطوفان إلا فى القرن السابع عشر ، حيث كانت موجاته المتلاحقة تعصف بالمدن والمدنيات ، وحيث كان كل إنسان مقدراً عليه أن يصاب به قبل أن يبلغ أشده ، وحيث كان الآباء والأمهات يعرضون أبناءهم لعدواه القاتلة حتى يفرغوا من أمرهم ، ويرفعوا عن رقابهم هذا السيف المصلت ، إما

إلى موت ، وإما إلى حياة ، وحيث كانت الأم فى الصين لا تعد من أولادها ولداً لم تقرعه القارعة بعد ، فتفصل فى أمره : ألها الولد أم لمثواه الأخير فى التراب . .

وبلغ ضحايا الجدرى فى أوربا فى القرن الثامن عشر ستين مليوناً ..

وخلال الحرب الأوربية التى تلت الثورة الفرنسية . مات بالجدرى وحده فى أوربا ستة ملايين !

وعندما أدخل الإسبان الجدرى إلى أمريكا بعد اكتشافها بخمسة عشر عاماً مات فى المكسيك من الجدرى ثلاثة ملايين ونصف فى فترة وجيزة من الزمان . .

وقدر عدد ضحايا الجدرى بين الهنود الحمر يومئذ — وكان عددهم اثنى عشر مليوناً — بستة ملايين !

وكان عدد سكان ايسلندا فى سنة ١٩٠٧ خمسين ألفاً مات منهم بالجدرى ١٨ ألفاً عندما داهمهم الوباء فى ذلك العام .

ولقد كانت مصر على الدوام مسرحاً لموجات متتالية من هذا الوباء، تعصف بسكانها كل بضع سنوات ، والذين أدركوا منا بداية هذا القرن ، كثيراً ما طالعتهم أفاعيل الجدرى فى أولئك الذين نجوا منه ، وجوهاً منقورة وعيوناً عمياء . .

حتى الملوك !

ومنذ عرف الجدرى لم يعرف عنه . . أنه احترم أحداً لجنس أو لمركز أو لسن ، فحيثما كانت تقع جرثومته على أرض صالحة ، كانت

تنبت وتينع وتبطش ببلاط الملك كما تبطش بكوخ الفلاح . .

مرض به شارل التاسع ملك فرنسا ، فانخسف جزء من أنفه ، حتى أصبح له أنفان !

وأصيب به لويس الرابع عشر . . .

ومات منه لويس الخامس عشر بعد أن نجا منه مرة فى صباه . . . .

وقضت نحبها تحت سنابكه مارى الثانية ملكة إنجلترا فى عنفوان الشباب . . .

إن عدواه عدوى طيارة كعدوى الحصبة والأنفلونزا ، يعتبر فيها مريض الجدرى كوكب النحس ، يرسل أشعته القاتلة على مخالطيه ومخالطى مخالطيه فى كل اتجاه . . . لا عاصم منها إلا اللقاح . .

شاعر يدين العالم !

كان « إدورد جنر » الذى اكتشف لقاح الجدرى فى سنة ١٧٩٦ شاعراً من شعراء الطبيعة ، وموسيقاراً يعزف على الناى والقيثار ، وهاوياً من هواة الطيور ، وعندما أعلن اكتشافه على الجمعية الملكية الطبية بإنجلترا ، قوبل اكتشافه بالرفض والاحتقار !

ولكن ماهى إلا سنوات حتى كافأه البرلمان الإنجليزى على هذا الاكتشاف الخطير بعشرة آلاف جنيه ، زادها بعد أربع سنوات إلى ثلاثين ، وعينه طبيباً فوق العادة للبلاط الملكى . . . وكتب له رئيس الولايات المتحدة يومئذ يقول : « إن أمم المستقبل ستعرف من التاريخ

أن مرضاً رهيباً اسمه الجدرى كان يبطش بالعالم يوماً ما ثم انقرض على يديك ! »

ولكن هذه النبوءة لم تتحقق كلها لسوء الحظ ، لأن اكتشاف « جنر » لم يول من الرعاية ما يستحقه على الدوام . . .

لقد اصطدم بالخرافة ، كما اصطدم بالعقيدة ، ولكنه انتصر فى النهاية ، وأصبح اليوم سلاحاً ضد الجدرى معترفاً به فى كل مكان . .

ولقد كانت مصر من أوائل الأمم التى اعتنقت سنة التطعيم ضد الجدرى على يد « كلوت بك » فجعلته إجبارياً على كل طفل قبل أن يبلغ الشهر الثالث من عمره ، كما أنها حتمت على البالغين إعادة التطعيم كل أربع سنوات ، وكلما رفع الجدرى رأسه ، وعرض أحداً من سكانها لعدواه .

خرافات ..

ولقد كانت هذه السياسة خليقة أن تجتث جرثومة الجدرى لولا اصطدامها هى الأخرى بسلسلة من الخرافات . . . .

وأولى هذه الخرافات أن التطعيم إذا لم يحدث فى ذراع المطعم آثاره المعروفة كان هذا دليلا على مناعته الطبيعية على الداء . .

وليس أوغل من هذه الخرافة فى الضلال !

فالجدرى لا توجد مناعة طبيعية عليه . . وإنما يفشل التطعيم إذا فشل

لأن الطعم المستعمل إذا فارق الثلاجة أصبح سريع البوار ، يفسد إذا تعرض للدفء زمناً فى جيب الطبيب ، ويفسد إذا استعمل فى خدش الجلد مبضع ساخن ، ويضيع فعله إذا سال من خدش الجلد فى موضع التطعيم دم كثير ، أو أسبغ الكم على موضع التطعيم قبل أن يتشرب الجراثيم . . وكثيراً ما يرى الطبيب أطفالا طعموا أربع مرات أو خمس مرات دون نتيجة ثم يطعمون السادسة فينجح التطعيم ويؤتى أكله المعروف .

مناعة « الكونكريت »

والخرافة الثانية أن المناعة الحادثة من هذا التطعيم مناعة كمناعة « الكونكريت » على الرصاص . . وهذا وهم ، فإن المناعة الحادثة وإن كانت قوية فعلا ، وقد تدوم عدة سنوات ، فإنها لا تدفع المرض فى كل الأحوال . .

ومن أجل ذلك تستوجب وزارات الصحة إعادة التطعيم . كلما وجد المرض وحدث التعرض لعدواه ، بغض النظر عما إذا كان الشخص قد طعم من قبل فى زمن قريب أو بعيد . . .

نعم إن مثل هذا الشخص المطعم قبل عام أو عامين ، او أدركه النحس فأصيب بالمرض ، كانت إصابته بسيطة . وكان مرضه رفيقاً ، وكادت مضاعفاته تنعدم ، ولكنه مع ذلك يكون مصدراً لعدوى مخالطيه عدوى قاتلة إذا لم يعصمهم اللقاح .

مسألة وقت !

والخرافة الثالثة أن التطعيم الناجح يدفع المرض عن مخالطي المريض إذا عمل فى أى وقت كان . .

وهذا ضلال ، فإن المناعة الحادثة من الطعم لا تنشأ إلا بعد تسعة أيام من عملية التطعيم الناجحة ، ولذلك يعتمد رجال الصحة فى هذا المرض على مزية التبكير بعملية التطعيم ، على أوسع نطاق ممكن ، حتى يقطعوا الطريق على الوباء . .

ولقد حدثت يوماً ما إصابة بالجدرى فى نيويورك ، فحشدت السلطات الصحية هناك كل أطباء المدينة ، بحيث تم تطعيم ثمانية ملايين شخص فى بضعة أيام ، فانحسم الوباء . . .

الاستحمام والتطعيم

وهذه خرافة أخرى نبتت مع غيرها من خرافات التطعيم ، وظن كثير من الناس أن الشخص المطعم يجب ألا يقترب من الماء ، حتى يصل الطعم إلى آخر مداه . . .

والواقع أن جرثومة الطعم مادامت قد انغرست فى خدش الجلد فإن الماء لا يزيل أثرها الدفين .

ويكفى أن يمتنع المطعم عن الاستحمام يوماً ، ثم يستحم فيما يليه كما يشاء

وليس الحمل من موانع التطعيم كما يعتقد كثير من الناس ، وإنما

تمنع منه وتدعو إلى تأجيله الأمراض الجلدية والإكزيما ، والضعف الشديد ، والحميات .

سلاح لا يخيب

إن فى يدنا الآن سلاحاً لا يخيب ضد الجدرى ، ولكن ما قيمة سلاح لا نستعمله ، وما جدوى السيوف فى الإغماد ؟

إن الجدرى مرض لا يلعب معه . ويكفى أن أردد ما قاله عنه المؤرخ الأديب « ما كولى » لأختتم به هذا النذير :

« إن هذا المرض الذى انتصر عليه العلم انتصاراً مجيداً كان يوما ما أفظع سفير من سفراء الموت فى العالم . . لكم ملأ أفنية الكنائس بالجثث وكم عذب بالخوف الدائم ألباب أولئك الذين لم يصابوا به ، وكم ترك آثاره الرهيبة على أولئك الذين نجوا منه ، وكم حول الرضيع إلى مسخ ترتعش أمه من مرآه ، وكم جعل من وجنات العذراء الفاتنة وعيونها الساحرة مصدراً للرعب والفزع فى عين خطيبها الولهان ! »



٢٢

خدعوك فقالوا :
إن البرد أصل الزكام !!

الزكام عدوى ، وليس البرد إلا عاملا تافهاً فيه ، شأنه شأن عدة عوامل أخرى تضعف مناعة الجسم على جرثومة الزكام .

وفى آخر رحلة لمستكشفى القطب الشمالى ، حيث تكون حرارة الجو دون الصفر بمدى بعيد ، لم يصب أحد من هؤلاء المستكشفين بالزكام حتى فتحوا صندوقاً للملابس ، واستنشقوا ما علق بها من جراثيم الزكام .

وقلما تصاب بالزكام وأنت تركب البحر أو تضرب فى الصحراء مها اشتد البرد وقسا الزمهرير .

ومن المؤكد أن الإنسان الأول عندما كان يعيش فى العراء ، وفى أحضان الطبيعة ، قليل الحاجات والمطامع ، لم يكن يعرف الزكام ، وأنه لم يعرفه إلا منذ عرف الغرف الدافئة المكتظة ، وعرف « السينمات » والمقاهى والمراقص ، وعرف زحام المطامع الموبقة فى سباق البشر القاتل على أسلاب الحياة .

إن المزكوم إذا عطس خرج من فه وأنفه قرابة مائة ألف قذيفة ، كل منها موسوق بألوف الجراثيم ، وكل منها يبلغ من الصغر حداً لا تراه العين ، وكل منها يسبح فى الهواء عدة أمتار ، وقد يبقى

عالقاً به بضع دقائق ، ومن ثم كان خطر الازدحام فى « السينمات » والمدارس والمكاتب ، وحيث تقوم الجدران والسقوف بوجه عام ، وحيث يركد الهواء وتشح أشعة الشمس المطهرة ، وتسبح هذه القذائف فى الجو على زوارق من ذرات التراب .

إن جسمك فى مثل هذه الغرف يصبح كالفرن من احتباس الحرارة فيه ، وتكون أغشية فمك وحلقك محتقنة بالدم احتقان الجلد سواء بسواء ، فإذا تعرضت بعد ذلك للهواء البارد استحال هذا الاحتقان إلى جفاف ، وفى هذا الانتقال المفاجئ ينفجر فى جسدك ما أصابه من قذائف المزكوم .

وأشد مواطن الضعف فى جسمك هى الأقدام الدافئة عندما تتعرض للهواء البارد ، وعندما أدخل تكييف الهواء على مجلس العموم البريطانى ، كان مدخل الهواء يحازى الأقدام . وعلى الرغم من أن الهواء المجلوب كان دافئاً ، فإن دفأه لم يستطع أن يناهض سخونة الرءوس المنبعثة من حرارة المناقشات ، فتخلف فى اليوم التالى أكثر من ثلث أعضاء المجلس مصابين بالزكام !!

وأكثر ما يصاب الأطفال بالزكام عندما يخرجون من مهودهم الدافئة فى الصباح حفاة الأقدام .

وليس الخطر من قذائف الزكام وحدها ، فقد تستنشق عدداً منها ولا تصاب ، لأن التربة ليست مهيأة للزرع ، أو بعبارة أخرى لأنك فى مناعة مؤقتة على جرثومة الزكام .

وإنما يهيض من هذه المناعة ويقص من حواشيها ، السهر المزمن ، والجوع ، والإجهاد على أى صورة ، والفوضى فى الحياة ، والاحتماء من « البرد» بنار المدافئ والغرف المكتظة المحبوسة الهواء .

إن الهواء الطلق البارد نعمة من نعم الله ، ولكنا نحقره لأنه رخيص ، ولو كان الهواء الطلق البارد يباع لاشترىناه بأغلى الأثمان .

وأكثر عباد الله خشية للهواء الطلق البارد المنعش وأضعفهم مقاومة للزكام هم المصدورون ، وقلما تجد منهم من لا يسجن نفسه فى ليالى الشتاء — اتقاء البرد — فى سجن لا يعرف طريقه الهواء ، فإذا ذهبوا إلى المصحات ، أجبروا إجباراً على فتح النوافذ ليلاونهاراً فى الصيف والشتاء ، وقد يصابون بالزكام مرة أو مرتين ، ولكنهم يكتسبون بعد ذلك مناعة على الزكام لا يؤثر فيها برد طوبة ولا زمهرير أمشير !!

ولو كان ضرر الزكام مقصوراً على أن تعطس وتسعل لهان . إن العلماء يضعونه اليوم فى قائمة واحدة مع الزهرى والسرطان .

يسمونه من أجل ذلك « طاعون البشرية الثالث » ، وذلك لأن الزكام — فوق أنه أكبر باعث على العطلة فى العالم ، يمهد الطريق لمائة مرض ومرض ، منها الزوائد اللحمية فى حلوق الأطفال ، وما قد يتبعها من هزال وضعف فى نمو العقل والبدن ، والتهابات فى الزور والآذان ، ومنها التهاب الكهوف العظمية فى الرأس ، وما يتلوه من علل فى المفاصل والأعصاب ، ومنها التهابات شعب القصبات الهوائية والرئة ولاسيما فى الشيوخ حيث يستطيع زكام بسيط أن يختم قصة الحياة فى بضعة أيام .

وكل هذا يمكن أن نتوقاه بالعودة إلى كنف الطبيعة ، وبهجران المدافئ ما استطعنا ، وبالعيش فى الهواء الطلق فى الليل والنهار والصيف والشتاء ، وبالفرار من الأماكن المكتظة المغلقة كما نفر من المجذوم ، وبتقليل التراب فى بيوتنا برش غرفها قبل الكنس بالرمل المندى بالماء، فإن التراب الذى يتناثر فى الهواء يحمل معه ما كان استقر بالأرض من قذائف المرض ، وباعتزال الناس عندما نصاب بالزكام .

الهواء الطلق البارد منعش ومقوّ ، بل هو ترياق ، ولا يمكن أن يكون سماً إلا للذى يخشاه . . .

والطبيعة أم حنون لا يمكن أن تقسو على غير ابنها العاق ، الذى يكفر بآلائها ويقفل نوافذه دونها فى غير ضرورة قصوى — حتى لا يراها ولا تراه !!



٢٣
خدعوك فقالوا :
إن الكحول أمان من البرد

ما أكثر الأوهام والأضاليل التى تحيط بالكحول فى تقدير شاربيه . . . زعموه نبراسا للعقل المغلق، ووحيًا للشاعر ، وإلهامًا للفنان ، وفصاحة للأبكم ، وشجاعة للجبان ، وقوة للضعيف ، وبهجة للحزين .

والواقع من كل هذا أن المرء وهو ثمل ، أضعف منه وهو مفيق ، وأضل منه تفكيراً وأكثر منه عرضة للخطأ ، وكل ما يحس به إنما هو زيف يصوره له التحرر من هيمنة القوى العليا فى ذهنه ، وهى ضبط النفس، والشعور بالمسئولية، والخضوع لأمالى العرف والتقاليد والشرائع ، وهذه القوى يشلّها الكحول أول ما يفعل بعقول شاربيه، فإذا ما انشلت هذه الأعنة الحاكمة ، ارتدّ الشارب إلى طبائعه الدنيا ، تجمع به حيث شاءت وشاء ، وصدق فيه ما قال الشاعر العربى :

والخمر كالريح . . إن مرت على عبق
تذكو ، وتخبث إن مرت على الجيف !

وأشدّ من هذه الأوهام كلها زيف ما يحس به المخمور من دفء يستعين به على ملاقاة البرد والزمهرير . . . إنه دفء كاذب ، كذب الفصاحة التى يزعمها لنفسه ، والقوة التى يتخيلها سارية فى عضلاته ، والخيال التافه الذى يتدفق فى ذهنه . . .

ومرد هذا الدفء الكاذب إلى ما يحدثه الكحول من تمدد فى أوعية الجلد الدموية ، وما يؤدى إليه هذا التمدد من امتلاء بالدم ، والدم بطبيعته حار ، يمنح المخمور شعوراً بالدفء اللذيذ ، ولو قيست حرارته فى الوقت الذى يحس به هذا الدفء لوجدت الحرارة هابطة نصف درجة ، أو درجة كاملة عن مستواها الأصيل . . . وذلك أن تمدد الأوعية الدموية فى الجلد واحتقانها بالدم ، يجعلان الجسم يفقد حرارته بسرعة ، وما لم يعوض عن هذه الحرارة المفقودة بالمجهود العضلى ، كالمشى والحركة ، أو بتثقيل الغطاء ، فإن المخمور كثيراً ما يتعرض لأذى البرد ، وكثيراً ما يصبح أقل مناعة على عدوى الزكام والالتهابات الرئوية .

نعم إن المزكوم فى مبدأ الزكام قد يستفيد من جرعة من الكحول وهو راقد فى فراشه مثقل بالغطاء . . . ولكن الفرق كبير بين هذا ، وبين أن يخرج المخمور من حانة مغلقة النوافذ، مكتظة بالشاربين ثم يعرض نفسه للبرد ، استناداً إلى ما يحسّه من هذا الدفء الدخيل .

صدق رسول الله عندما قال : « لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه » أو كما قال .

٢٤

خدعوك فقالوا :
القبلة سفير المحبة

إن الشفاه التى لها مذاق الرحيق ونعومة الحرير ، ونشوة الكأس ، وحمرة العندم ، يجوز أن يكمن فيها سم العقرب فى بعض الأحيان !!

فالفم والأنف والحلق والشعب الهوائية مباءة لعشرات من الجراثيم المرضية ، قد لا تؤذى صاحبها لمناعة فيه . ولكنها تؤذى الغير إذا لم تكن له المناعة نفسها . . . . وهذه الجراثيم تخرج من الفم مع السعال والعطاس والتثاؤب والصياح ، وكثيراً ما تموت إذا طال تعرضها للشمس والهواء ، لأن معظمها أشبه ما يكون بالسمك إذا خرج من البحر أودى به الجفاف ، ولكن إذا ما دخلت فم شخص آخر — ليست لديه حصانة الأول — نمت وترعرعت فيه ، ورعت من صحته وعافيته ما يقدر لها أن ترعاه .

إن العدوى أشبه ما تكون بقنطرة يجب أن تجتازها الجراثيم المرضية بين مصدرها فى المريض أو حامل الجراثيم ، وبين هدفها فى الشخص السليم . . . وكلما قصرت القنطرة ، وقلت فيها العوائق أصابت الجراثيم هدفها بسهولة ، وكلما طالت القنطرة وتعددت فيها العراقيل ، أخطأت الجراثيم غرضها ، وقتلتها مشاق الطريق . وعندما تتلاقى الشفاه بالشفاه فى قبلة لا تقصر القنطرة فحسب ، ولكنها

تتلاشى ، ولا تقل عوائق الجراثيم فحسب ، ولكنها تزول . وشر ما تكون القبلة وأخبث عندما توضع على شفتى طفل برىء، وبالأخص إذا كان الطفل رضيعاً ، لا حيلة له فى نفسه ، ولا قدرة لديه بعد على دفع الأذى أو مقاومة الجراثيم .

إن هذه القبلة كثيراً ما أعدت بالسل أطفالا، وطالما دهتهم بالأنفلونزا والحصبة والسعال الديكى والالتهاب السحائى والنزلات الرئوية وعشرات غيرها من الأمراض ، وهم من غضارة العود، وضعف المناعة، ورقة الحاشية ، بحيث لا يستطيعون الصمود .

إن القبلة قد تكون سفيراً للمحبة ، ولكن هذا السفير كثيراً ما يخطئ — دون قصد — فيحشو حقيبته السياسية ببعض آلات المرض والموت والدمار !!



٢٥

خدعوك فقالوا :

إن الحصبة لا تصيب إلا الأطفال

كثرت إصابات الحصبة بين الأطفال فى هذه السنين، وبدأت موجتها الوبائية تجتاح بلادنا مرة فى كل عامين . وبرغم أن معظم المصابين من الأطفال ، فليس معنى ذلك أن الحصبة تحب كل الناس، ونفسها حلوة لجميع الأعمار، ولكنها حيث تتوطن وتوجد على الدوام ، يكون الكبار متمتعين بمناعة قوية منذ إصابتهم بالمرض وهم أطفال والذين لا يتمتعون منهم بهذه المناعة ، يقعون مثل أى طفل تحت ضربات الوباء .

نحن والحصبة

إن انتشار الحصبة يختلف باختلاف المجتمعات . فنى مثل مجتمعنا المزدحم بالسكان توجد الحصبة فى كل الأوقات، وعلى مدار العام ، أى أنها مرض متوطن فى بلادنا ، وإن اختلف توزيع إصاباته على أشهر العام وعلى مدار السنين — فنى السنين الوبائية تكثر فى الشتاء والربيع ، وتضع بصمتها على كل بيت به شخص أو أشخاص لا يتمتعون بمناعة عليها من مرض سابق، أو تحصين قديم . ولما كان معظم العزل من هذه المناعة فى بلادنا

من الأطفال فإنها تنتشر بينهم ، وتنتقل مثل انتقال النار فى الهشيم من طفل إلى طفل ومن مكان إلى مكان لأنها من أسرع الأمراض المعدية انتقالا بين المرضى والأصحاء . ويكفى أن يفتح الطفل القابل للعدوى باب غرفة أخيه المريض ، ويقول له صباح الخير حتى تكون فيروسات المرض المبعثرة فى الهواء قد دخلت أنفه أو فمه أو عينه دون استئذان . ويظل الوباء على منواله هذا فى اصطفاء فرائسه من بين الأطفال حتى تستنفد موجته كل أغراضها ، ولا يبقى من بين الأطفال القابلين للعدوى إلا قلة بسيطة ، لا يصيبها المرض لأنها لم تتعرض – عن طريق المصادفة المحض – لجيوش الوباء السابحة بغير انتظام فى الهواء – وتنحسر الموجة الوبائية فى بضعة أشهر ، تاركة مكانها لحالات مبعثرة هنا وهناك تظهر بين الحين والحين بين أولئك الأطفال الذين لم يتعرضوا لموجة الوباء . ويظل الأمر على هذا المنوال بقية العام والعام الذى يليه ، لأن المواليد الجدد من الأطفال تكون لديهم ذخيرة من الأجسام المضادة لجراثيم المرض يرثونها من الأمهات ، فتحميهم عدة أشهر من غوائل الوباء . وكذلك لا تحدث موجة وبائية فى العام التالى للموجة السابقة ، وإنما تظل الحصبة على حالاتها المبعثرة هنا وهناك كأنها نار تحت التراب ، فإذا جاء العام التالى يكون قد تجمع من الأطفال غير المحصنين عدد كبير من بين مواليد السنتين اللتين فقدوا فيهما مناعتهم الموروثة من الأمهات ، أى أن كومة طيبة تكون قد تكونت من الحطب

الجاف ، فلا تكاد جراثيم المرض تصل إليها حتى تنتشر فيها من جديد انتشار النار فى الهشيم فتحدث الموجة التالية للوباء .

خيار وفاقوس

هذه هى استجابة مجتمعنا المزدحم لعدوى الحصبة ، هو وأمثاله من المجتمعات . بيد أن كل المجتمعات ليست من هذا القبيل ، فثمة مجتمعات صغيرة ومنعزلة لم تعرفها الحصبة قط ، ملم تطأ أرضها، قدما مريض، هو مصدر العدوى الوحيد ، أو لعلها عرفتها فى الماضى ، ثم انجلت عنها فترة طويلة من الزمن ، وفى مثل هذه المجتمعات المنعزلة التى لا مناعة فيها على الحصبة ، لا يكاد يفد عليها مريض بالحصبة حتى ينثر جراثيم المرض من حوله ، فى سخاء جعفر البرمكى ، وهو ينثر من يده الدراهم والدنانير ، فتحدث موجة وبائية جارفة لا تحترم سناً ، ولا توقر كبيراً ، ولا ترفق بصغير ، ولا تفرق بين غنى وفقير . ومن الأمثلة المعروفة لمثل هذه العدويات الضارية من الحصبة ، وباء حدث فى الجزء الجنوبى من جزيرة جرينلند ، المعروفة الآن بسقوط طائرة محملة بالقنابل الهيدروجنية الأمريكية عليها ،وضياعها فى الثلوج،أصاب ٩٨ فى المائة من سكان المنطقة البالغ عددهم ٤٣٢٠ شخصاً ، وكان ذلك سنة ١٩٥١ . وفى جزر فارو الواقعة شمال الجزر البريطانية حدث وباء للحصبة سنة ١٧٨١ ،واستنفد الوباء أغراضه فى السنة نفسها، وانجاب عن هذه الجزر التى ظلت بمنجاة منه ٦٥ عاما،

حتى كانت سنة ١٨٤٦ ، حيث وفد على هذه الجزر نجار دانمركى ، ترك كوبنهاجن عاصمة الدانمرك فى ٢٠ مارس ، ووصل إليها يوم ٢٨ . وكان بادى الصحة ، لا يشكو من أية أعراض ، ولكنه بعد يومين من الوصول مرض بحمى مصحوبة بزكام وسعال واحتقان فى العينين يصحبه فيض من الدموع ، وهى الأعراض الأولى لمرض الحصبة ، وبعد يومين ظهرت فى فمه ، وعلى الغشاء المخاطى المبطن للخد تلك النقط المميزة لمرض الحصبة والتى تشبه نثاراً من ملح السفرة تبعثر على خرقة حمراء .

وفى اليوم الرابع من بداية الحمى ظهر طفح الحصبة المألوف المكون من بقع حمراء متعددة وغير منتظمة الشكل ، وتزول بالضغط عليها ، بادئة من الجبين ومن خلف الأذنين ، ثم مثنية بالوجه والعنق ، ومثلثة بالجذع والذراعين وهكذا حتى تشمل البدن كله ، ثم تبدأ تنطفئ بعد اليوم الثالث من ظهورها بالترتيب نفسه الذى اشتعلت به ، تاركة وراءها قشوراً رقيقة كأنها ردة الطحين . إن الأسطى النجار كان قد اتصل قبيل سفره من كوبنهاجن بمريض بالحصبة ، ولما كانت حضانة المرض عشرة أيام فقد ظهرت عليه بوادر الحمى يوم ٣٠ مارس بعد وصوله بيومين . . . ومنذ ذلك اليوم اندلعت الحصبة بين سكان الجزر بسرعة الشياطين ، وأصابت ٦١٠٠ شخص من جميع الأعمار من بين ٧٨٦٤ شخصاً هم كل السكان ، ولم يسلم من المرض غير المعمرين الذين استمدوا مناعة

من وباء سنة ١٧٨١ . ومات من المصابين ١٧٠ شخصاً بمعدل يكاد يصل إلى ٣ فى المائة من مجموع الإصابات ، وإن بلغ هذا المعدل بين الأطفال الرضع الذين لم يكملوا الحول الأول من عمرهم حوالى ٣٠ فى المائة أى عشرة أمثال المعدل العام ، ومن المعروف أن الحصبة تكون أشد ضراوة فى السنة الأولى من العمر ، وتليها الثانية ، ثم الثالثة حيث تبدأ السن التى ترفق فيها الحصبة بالمصابين ذوى البنيان المرصوص ، وإن كانت تعامل الضعفاء والمرضى بأمراض مزمنة بالقسوة نفسها التى تعامل بها الأطفال الصغار .

مرض بلا علاج

إن الحصبة فى ذاتها مرض بسيط ومسالم إلى حد كبير ، ولكنها مرض بلا علاج ، وقد تحدى حتى اليوم كل وسائل الطب والعقاقير ، وكافة حيل الأطباء . . . بيد أن المضاعفات الشريرة التى تحدثها الحصبة والتى قد تكون سبباً فى إجهازها على الرضع والضعفاء ، سواء كانت التهابات فى المخ ؛ أو فى الرئة أو فى الأمعاء ، هذه المضاعفات هى التى تتقهقر أمام العلاج . ومن أجل ذلك فإن علاج الطفل المصاب بالحصبة ينصب دائما على توقى هذه المضاعفات قبل حدوثها وعلاجها إذا حدثت نتيجة الإهمال فى رعاية المريض . والذى يستطيع أن يقوم بهذا العلاج الواقى هو الطبيب . والعسل الأسود لا قيمة له من هذه الناحية ، وقد يكون ضرره أكثر من نفعه

فى مثل هذه الظروف ، كما أن الثياب الحمراء والستائر الحمراء لا جدوى منها فى هذا النوع من العلاج ، وإن كانت لها فائدة فهى إراحة عينى المريض الملتهبتين من الضوء الباهر الذى تمتصه الألوان الحمراء .

كاشف البلاء

فى الماضى كانت الحصبة بلاء على الطفل لا راد له ولا كاشف لأذاه — وكان ثمن المناعة الدائمة على المرض هو الاستسلام للوباء . أما الآن فيوجد لقاح واق من الحصبة يؤخذ حقنة تحت الجلد ، فى الشهر التاسع من العمر ، فيحمى الطفل من الحصبة ومن مضاعفاتها الشرير منها وغير الشرير . وهذا اللقاح فتح من الفتوح الطبية التى أفاضتها على البشر سنوات القرن العشرين . . .



٢٦

خدعوك فقالوا :

إن الحصبة يشفيها العسل الأسود والثياب الحمراء !

معرفة الأم المصرية بالحصبة وثيقة ، فبين الاثنتين خبز وملح منذ أقدم العصور ، وقدرتها على تشخيص الحصبة قد تفوق قدرة كثير من الأطباء الناشئين ، وهي قلما تخطئ في هذا التشخيص ، وحسبها أن ترى طفلا محموماً يسعل ، ويرشح أنفه ، وتدمع عينه الرمداء ، فتضع أصبعها على مكمن الداء ، حتى قبل أن ينبثق الطفح المألوف في اليوم الرابع من المرض ، فتكتمل للطبيب الناشئ صورة المرض الموصوفة في الكتاب !

إنها من هذه الناحية تستحق وساماً من أوسمة أبقراط !

ولكنها من حيث العناية بطفلها المحصوب لا تستحق في العادة أكثر من الرثاء والتوبيخ ! . .

إنها تقتل ابنها المحصوب قتلا في بعض الأحيان !

إن نظرة واحدة إلى أى رسم بيانى لمعدل الوفيات العامة فى القطر المصرى لتريك أن هذا المعدل يرتفع مرة كل عامين ، فيكون له بين الفترة والفترة سنام كسنام البعير .

والحصبة هى المسئول الأول عن هذا السنام ، لانتشار أوبئتها

فى مصر مرة كل سنتين ، ولأنها تقضى فى كل وباء على حياة ألوف من الأطفال الأبرياء .

إن الحصبة فى نفسها مرض رفيق لا يقتل ، ولكن مضاعفاتها — وأخطرها الالتهاب الرئوى والتهاب المعدة والأمعاء والتهاب المخ — هى وحدها التى تخط القبر للطفل المسكين .

والحصبة فى نفسها كذلك لا دواء لها ، ولا بد أن تقضى أيام ضيافتها كاملة فى جسم المحصوب ، وإنما يعالج الطبيب مريض الحصبة علاجاً يقيه — أو يداويه — من عوادى السعال والإسهال ، أى من غوائل « الحانوتى» واللحاد ! !

والوقاية فى هذه الحالة أيسر من العلاج ، فتنظيف فم المريض وحمايته من البرد ، وعزله فى غرفة جافة دافئة متجددة الهواء ، يقيه عادة من الالتهاب الرئوى ، والحرص على نظافة طعامه ، والتخفيف منه ، كفيل برد عادية التهاب المعدة والأمعاء . . .

ولكن أنّى لسواد الأمهات المصريات أن يدركن هذا ، وغاية ما يحتشدن له فى هذه الظروف هى كسوة المريض من رأسه إلى قدميه باللون الأحمر ، وحشو بطنه بالعسل الأسود ، كأنه هو الترياق . .

إن اللون الأحمر لا قيمة له فى ثوب المريض ، وقد ينفعه فى ستر مصادر الضوء فى غرفته ، لأن الضوء البراق يؤذى العين الرمداء . . ومثل اللون الأحمر فى هذا أى لون سواه .

والعسل الأسود كذلك قد لا يضر القليل منه إذا كان نقياً لم تلوثه

الجراثيم ، فهو سكر مخفف له نفع كغذاء ، ولكن الكثير منه لذاع للمعدة والأمعاء ، قابل للتخمر فيهما ، وهو كذلك مائدة طيبة للذباب ، وقلما يسلم طبق العسل المهمل من ذبابة تقع عليه فتحقنه بألوف الجراثيم التى تورث التهاب المعدة والأمعاء .

ومضاعفات الحصبة أقرب إلى الطفل الصغير منها للكبير ، وهى أفتك بهذا منها بذاك ، وفرق العام الواحد يحدث فجائع كما يحدث معجزات ، ومن هنا نشأت دعوة الأطباء الدائمة إلى عزل كل طفل يحم ، ويزكم ، وتحمر عيناه ، عن إخوته ولاسيما الصغار ، حتى ينتفى الشك فى أنه محصوب .

ولكن سواد الأمهات يؤمن بأن الحصبة قدر لا مفر منه للأطفال ، فيضعن السليم منهم بجوار المريض حتى يعدى الكل دفعة واحدة اختصاراً لمشاكل التمزيض الطويل ، وتهويناً لنفقات الطبيب ، وقد تكون الحصبة كما يزعمن ، فإن عدواها أسرع من سريان النار فى الهشيم ، وقلما يسلم الطفل من عدواها على مر السنين إلا إذا كان قد أصيب بها من قبل . . ولكن هذه السياسة مع ذلك سياسة طائشة ، أو قل هى مؤامرة غير مقصودة بين الأم وبين الموت على أصغر أطفالها سناً وأضعفهم على الكفاح والنضال .

إن فخر تعريف الحصبة إلى العالم منذ ١١ قرناً كمرض قائم بذاته يعود إلى « الرازى » الطبيب العربى القديم . . .

أترى يأتى اليوم الذى نستطيع أن نقول لروح الرازى فيه :

« ونحن العرب قد وضعنا السبع الضارى فى القفص وكففنا عن أطفالنا أذاه بالتحصين » .

إن الجواب عن هذا السؤال متروك للأم العاقلة ، فهى وحدها التى تستطيع أن تقرب هذا اليوم ، وتجيب عن هذا السؤال بالإيجاب .



٢٧

خدعوك فقالوا :

إن البرص هو الجذام

إن العلم لم يقض حتى اليوم على الكوليرا ولا على التيفوس، وإن كان قد استطاع كبح جماحيهما وإلزامهما الأدب فى التعامل مع الناس . وكذلك الشأن فى مرض الجذام ، وإن كان قد اختفى أو كاد من أوربا بعد عصر النهضة والتصنيع والرخاء الاقتصادى العام ، فإنه لا يزال يدمغ بطابعه أحد عشر مليونا من البشر مبعثرين فى كثير من بقاع العالم المتخلف أو الآخذ من النماء . . . ولكنه لم يعد بفضل العلاج الحديث ذلك المرض المخيف الرهيب الذى كان يشوه أجساد ضحاياه ، ويمثل بهم ويدفعهم دفعاً إلى التحلل البطىء ، فإن هذا العلاج الذى أنقذ أشعة الأمل فى الحياة التعسة المظلمة التى كان يحياها المجذومون ما زال يستغرق بضع سنوات ، يتحتم فيها على المريض أن يكون فى مثل دقة الساعة من حيث مراعاة النظام فى أخذ الدواء . . .

سجن .. كم كان فيه من مظالم !

إن المصير الذى كان يساق إليه المجذومون كان مصيراً زاخراً بالأهوال ، ويكفى كأمثلة للتدليل عليه – أن نشير إلى الأمر الذى أصدره رمسيس الثانى سنة ١٢٥٠ قبل الميلاد بنفى ٨٠٠٠ مجذوم ، إلى بقعة مجهولة على حافة الصحراء ، لم يعرف لهم فيها مصير حتى الآن ،

أو الأمر الذى أصدره فيليب ملك فرنسا الملقب «بالطيب» فى سنة ١٣١٣ ، والذى كان يقضى بإحراق كافة المجذومين فى فرنسا أحياء . .

ولقد كان الجذام يختلط تشخيصه فى ذلك الوقت بكثير من الأمراض الجلدية التى تشبهه فى سمة أو أخرى من سماته المتعددة ، كالبهاق والزهرى والقوباء والصدفية ، بل حَبّ الشباب فى بعض الأحيان ! ! وكم سيق من ضحايا هذه الأمراض . إلى مقابر الأحياء التى كان يعيش فيها المجذومون ليقضوا نحبهم هناك . ولذلك لا يعجب المرء من الخلط بين البرص والجذام حتى فى التوراة .

نجاسة

فى التوراة المعربة أن الرب كلم موسى قائلا : « إذا كان إنسان فى جلد جسده ناتئ أو قوباء أو لمعة تصير فى جسده ضربة برص ، يؤتى به إلى هارون الكاهن ، أو إلى أحد من بنيه الكهنة ، فإن رأى الكاهن الضربة فى جلد الجسد ، وفى الضربة شعر قد ابيض ، ومنظر الضربة أعمق فى جلد جسده فهى ضربة برص وهو إنسان أبرص . إنه نجس ، فيحكم الكاهن بنجاسته . . . ويقيم وحده وخارج المحلة يكون مقامه» ولا شك أن هذا المرض الموصوف فى التوراة هو الجذام ، وأن النجس المشار إليه هو المجذوم . . .

البرص فى لغة العرب

إن البرص فى لغة العرب مرض يحدث فى جسم المريض كله قشراً

أبيض ، ويسبب للمريض حكاً مؤلماً. فالمرض الذى يصنع ذلك ليس هو الجذام . فالجذام يشل أعصاب الحس فى الجزء المصاب ، لأن ولعه شديد بأعصاب الإحساس . . . ولعل المرض الأكثر انطباقاً على هذا التعريف اللغوى للبرص هو مرض « الصدفية » الذى يتميز بظهور بقع حمراء فى جلد المصاب ، تغطيها قشور فضية بيضاء، تشبه قطرات من الشمع الذائب سكبت سكباً على جلد المريض أو قطع من النقود الفضية تناثرت فوق جلده هنا وهناك . ومرض الصدفية على عناده فى العلاج ، وكثرة انتكاسه بينه وبين الجذام من حيث الخطورة ما بين الأرض والسماء!

الجذام والأديان

ولم تكن علاقة الجذام بالتوراة هى علاقته الوحيدة بالأديان. . فقد ارتبط كذلك بالمسيحية ارتباطاً وثيقاً ، وانبعث الاثنان كما يقول بيرتون روتيه مؤلف كتاب أحد عشر رجلا أزرق ، الذى ترجم للعربية بعنوان « بوليس الأمراض» انبعثا من خرائب روما ، واقتحما أوربا دون عائق فى دياجى القرون المظلمة ، وبلغ كلاهما أشده خلال شفق القرون الوسطى الطويل ، وأعقب اعتناق المسيحية فى أرجاء أوربا كافة ، اعتناق مثله لمقت المجذومين . . . وفى سنة ١١٧٩ أصدرت الكنيسة مرسوماً قالت فيه : « إن عزل المجذومين — وإن كان يتم بطريقة سليمة — يجرى بسرعة ممقوتة ، وبلا احتفال ، وإنه يتحتم

فى المستقبل حين يتم تشخيص حالة مصاب بالجذام من أحد الأطباء (أو كما جرى العرف يومئذ أن يكون حق التشخيص للقضاة) ألا يتم العزل فور التشخيص ، ولكن تسبقه حفلة كحفلات الجنازة يرتدى فيها المريض كفناً ، ويشيّع من أقاربه وذويه تشييع الأموات . ويقام على روحه صلاة الجنازة على ضوء الشموع ، ويلقن تلقين الموتى ، ويقاد إلى مقبرة الكنيسة فينثر عليه ترابها ثلاث مرات يقال له فى أثنائها : «كن من اليوم ميتاً بالنسبة للعالم وحيًّا بالنسبة لله» .

الجذام والطب

إن الطب بمنجزاته الحديثة قد جعل عزل المجذوم أمراً لا ضرورة له على الإطلاق . وأكثر المجذومين يعيشون اليوم أحراراً كمرضى السل سواء بسواء، بل إن اللقاح الواقى من السل وجد أنه يقى من الجذام كذلك فى معظم الأحوال ، والمرضان كأنهما أبناء عم أو أبناء خال ، كلاهما مرض اجتماعى ، وكلاهما يبدد بهجة الرخاء، وكلاهما يستجيب للعلاج المنتظم الطويل .



٢٨

خدعوك فقالوا :

إن المكلوب ينبح كما ينبح الكلب

المكلوب هو المصاب بداء الكلب ، والكلب مرض يصاب به الإنسان عادة من عضة حيوان مسعور . وليس بين الأمراض مرض كالكلب تمشى فى ركابه حاشية ضخمة من الأباطيل :

وأولى هذه الحاشية : أن الكلب « بسكون اللام » هو مصدر المرض الوحيد : وليس هذا من الحقيقة فى شيء ، لأن المصدر الرئيسى للمرض هو الذئب ، ومنه انتقلت العدوى إلى الثعالب وبنات آوى والكلاب والقطط وأشباهها من الثدييات آكلات اللحوم ، ومنها تصاب الثدييات الأليفة آكلات الأعشاب كالجمال والحمير ، وأخطر عضة من هذه الناحية هى عضة الذئب وتليها فى الشراسة عضة الهر ، ثم عضة الكلاب .

وثانيتها : أن إصابة الإنسان بالكلب لاتنشأ إلا من عضة حيوان هائج مسعور . . . وهذا باطل ، فإن الحيوان الكلب قد يعدى وهو فى فترة حضانة المرض ، وقبل أن تظهر عليه أية أعراض . . . وفوق ذلك فإن الأعراض فى بدء ظهورها قد تكون من اللطف بحيث إن الكلب المصاب يصبح أشد مودة لمخالطية مما كان ، وإذا لعق أيديهم فى هذه المرحلة ، وفى جلدها خدش ، فقد يصاب المخالط بالمرض

دون أن يحسب لذلك أى حساب . ثم إن لعاب الحيوان المسعور ، قد يصبح أشد ما يكون عدوى فى دور المرض الأخير وهو دور الشلل العام ، بل إن هناك نوعاً من الكلب يسمى بالكلب الأخرس يتميز بالشلل فى كافة مراحله ، ويقضى على الكلب المصاب فى مدة يومين أو ثلاثة أيام ، ومع ذلك يكون لعاب الكلب فيه أفحش ما يكون إعداء .

وثالثها : أن كل إنسان يعضه كلب مكلوب لا بد أن يصاب بالداء . . . وهو وهم لا يستند من الواقع إلى أساس ، وفى بعض الإحصائيات العلمية التى عملت على عدد ضخم ممن عقرتهم حيوانات مسعورة ، ثبت أن عدد الإصابات بالكلَب لم يزد على ١٠٪ ممن عضتهم الحيوانات فى منطقة العنق والرأس ، و٤٪ ممن عضتهم فى الذراعين ، وأقل من ذلك فيمن عضتهم هذه الحيوانات المسعورة فى السيقان ، ولعل بعض السر فى ذلك أن جرثومة المرض « الفيروس » تختلف فى الضراوة بين حيوان وحيوان ، كما أن العضة تختلف فى شدتها ، وفى مكانها من الجسم من حيث عريه أو تغطيته بالثياب . وعدد العضات نفسه قد يكون عاملا مقرراً لمصير المصاب .

وأشيع هذه الحواشى من الأباطيل ، وهى رابعتها : أن الإنسان المكلوب ينبح كما تنبح الكلاب ، ويهيم على وجهه كما تفعل الكلاب المكلوبة ، فيعقر كل من صادفه فى الطريق : وليس هذا من الحق فى شىء ، ولقد نقاه طبيب فرنسى يدعى بيير جوزيف ديزولت

فى مقال نشره سنة ١٧٣٦ ، ولكن الخرافة ظل صداها يتردد فى سمع الأجيال برغم ذلك ، حتى وصل إلينا بكامل زخرفه سنة ١٩٦٧ فى كتاب محترم جاء فيه أن الإنسان المصاب بالكلب يصاب بآلام غريبة فى موضع الجرح حتى ولوكان قد حدث منذ عدة أشهر ، وكان الجرح قد أصبح كامل الاندمال ، ثم تعاود المصاب حمى خفيفة ، وتعتاده نوبات من التقلص فى عضلات البلع يصحبها ألم فظيع ، وتستثيرها أبسط المؤثرات لرؤية الماء «ومن هنا نشأت تسمية المرض قديماً بمرض الخوف من الماء » ، وهى الأخرى تسمية باطلة ، فإن المريض يكون شديد الشوق إلى الماء ، وهو لا يخافه ، ولكنه يخاف ابتلاعه وما يقترن به من عذاب أليم . وقد يصاب المريض بقلق تقطعه فترات من الاستكانة والهدوء ، وقد يصاب فى حالات نادرة ببعض أعراض الهياج ، ويتلو ذلك شلل عام يعقبه الموت فى وقت قصير .

إن المريض قد يصرخ من ألم البلع ولكنه لا ينبح نباح الكلاب ، وقد يتهيج من الظمأ ولكنه قلما يفقد عقله .

وخامستها : أن المرء إذا عضه كلب مكلوب يرسل إلى مستشفى الكلب للعلاج . . . وتلك أكذوبة ضخمة ، لأن مرض الكلب إذا حدث فلا علاج له ألبته سواء كان فى إنسان أو حيوان .

إن المصاب محكوم عليه بالإعدام حكماً لا نقض فيه ولا إبرام ، وما من قوة فى الوجود تستطيع أن تحول بينه وبين الموت الأكيد . . .

ـ وإنما يرسل الشخص الذى عقره حيوان إلى مستشفيات الكلب ليعطى اللقاح الواقى من المرض « وليس المصل كما يسميه الجهال » وهو يعطى هذا اللقاح على وجه الضرورة لمواجهة الخطر المحتمل إذا كانت العضة بجوار الدماغ ، أو كانت متهتكة الجراح ، أو كانت فى أكثر من مكان ، ولاسيما إذا كانت فى موضع عار من الثياب .

ـ وسادسة هذه الحواشى من الأباطيل ، وإن لم تكن آخرها : أن اللقاح المستعمل الآن فى توقى الكلب هو لقاح باستير . . إن العالم مدين حقيقة لباستير يا بأول لقاح واق من المرض ، ولكن اللقاح الذى يستعمل الآن ليس نفس اللقاح .

وما أكبرها من حاشية أباطيل تمشى فى ركاب مرض واحد حتى فى عصر العلم والنور ! . . .



٢٩

خدعوك فقالوا :

جمرة حميدة !

الجمرة دمامل مجتمعة فى مكان واحد ، ويخرج القيح منها من أكثر من موضع ، كما تقول مجلة العربى الغراء ، فى مقال جامع لها عن الدمامل .

وتنشأ الجمرة من عدوى بالبكتير العنقودى ، والبعض يسمونه العنبى ، وإن لم يكن له من حلاوة العنب شىء ، برغم ما فيه من ملامح التشابه مع العنقود . وهو « ميكروب » موجود فى أنوف كثير من الأصحاء ، وعلى جلودهم ، وفى فضولهم ، ويكثر تبعاً لذلك فى منطقة السبيلين ، وتتلوث الأيدى القذرة منه على الدوام ، وتصبح أداة لعدوى الشخص نفسه أو عدوى الآخرين .

و « الميكروب » العنقودى لا يكون فى أضرى حالاته حين يخرج من شخص سليم ، وإنما تبلغ ضراوته قصاراها حين يكون صاحبه مصاباً بالتهاب كهوف العظم الأنفية ، أو بالزوائد اللحمية فى بلعومه ، أو بدمل نزاز ، أو بالتهاب الأصابع المسمى بالداحوس .

وتوصف الجمرة الناشئة من « الميكروب » العنقودى بأنها حميدة تمييزاً لها عن الجمرة الخبيثة الجلدية التى تنشأ من عدوى « بميكروب » أشد خطورة من عدوى « الميكروب » العنقودى بكثير . وهى عدوى

تصيب الماشية والخيول وتقتلها ، وتخرج جراثيمها مع فضول الحيوان المريض ، فتلوث شعره وجلده ، وحين يذبح هذا الحيوان خفية (لأنه لو أخذ إلى المذبح لصودر وأعدم هناك) يحمل القصاب جلده أو ملحقاته على كتفيه ، فيصاب بالجمرة الخبيثة فى هذا المكان ، وهى جمرة غاضبة ضارية ، سوداء كثيراً ما تقود ضحيتها إلى القبر إذا لم تسعف بالعلاج . وكانت هذه الجمرة الخبيثة فى الماضى تصيب بعض المثقفين ، نتيجة استعمال فرش الحلاقة المصنوعة من شعر الخيول الملوثة ، والتى كانت تستورد من الخارج غير مصحوبة بشهادة تثبت خلوها من هذا الميكروب الخطير .

بيد أن « الميكروب » العنقودى وإن كان « ميكروبيًا » طيعًا مسالمًا فى الأغلب ، فإنه أحيانًا يتضرى ويتمرد ويحدث الدمامل . وقد يزداد تمرداً وضراوة فيحدث الجمرة الموصوفة بأنها حميدة ، برغم أنها ليس بها شىء يحمد أو يستحب أو يستساغ على الإطلاق ، فهى — ولاسيما حين تحدث فى القفا — تؤلم وتضايق وتزعج أشد الإزعاج ، وهى — وإن كانت تنتهى فى الأغلب على خير بعد أن ترى صاحبها نجوم الظهر — تتأبط الشر إذا كان المريض مصابًا بالسكر ، أو كان خائر المقاومة ، مهدم حصون الدفاع لأى سبب من الأسباب .

ثم إن « الميكروب » العنقودى — على أنه « ميكروب » مسالم — له سفالة أخرى ، فهو من « الميكروبات » التى تفرز سمومًا تسمم الطعام ، ولاسيما الطعام الذى لا يؤكل لوقته ، وإنما يترك يبيت ليستعمل

فى اليوم التالى دون أن يحفظ فى ثلاجة يحول بردها دون توالد «الميكروب» .

ونعود إلى الجمرة التى ليست بحميدة ولا مستحبة ، والتى يحدثها « الميكروب » العنقودى ، فنقول إنها نوع من أنواع المظاهرات التى يحدثها هذا « الميكروب » ، وإن كانت من أعنف مظاهراته ، ومن آلمها ، ومن أشدها قسوة على المريض ، وإن كانت فى العادة لا تميت .

ولو قلنا إنها جمرة حمقاء ، لكان القول أشبه بها ، فالحمق قد يؤذى ، وقد يزعج وقد يغيظ ويسىء مثل الجمرة العنقودية تماما ، وإن كان مثلها . . . لا يميت !

والشأن فى وصف هذه الجمرة بالحميدة كالشأن فى وصف بعض الأورام غير السرطانية بنفس الصفة تمييزاً لها عن أورام السرطان ، المدمرة ، والمتمردة على كل نظام . . .

إنها هي الأخرى ليس فيها ما يحمد أو يستطاب . وكل ما فيها تشويه ، ومضايقات ، وتوقع دائم للبلاء ، وانتظار أن يتحول هدوؤها الظنين إلى عاصفة ، فلو وصفت هى الأخرى بالأورام المسالمة أو الخاملة أو الخامدة لكان الوصف أقرب إلى واقعها المريب . . .

بيد أن شيئا آخر يلفت النظر فى مقال الدمامل القيم فى مجلة العربى الغراء وهو دعوة مريض الدمامل إلى الذهاب للطبيب فى بعض الأحوال دون بعض . فيذهب إليه حين يكون مريضاً بالسكر ، وحين تصاب العين بالدمامل ، وحين لا تنتهى الدمامل إلى رأس ، أى لا تنضج ولا تنبط فتلفظ ما فيها من صديد ، أما فى غير ذلك فليس

المفروض أن يجرى المريض إلى الطبيب فى كل صغيرة ، فليس فى أمة من الأطباء ما يكفى لهذا أو بعض هذا ، ولكن على المواطن أنه يفرق بين الصغير والخطير . ويحمى نفسه بنفسه بالقدر المعقول . . .

إنها دعوة خطيرة ومحزنة ، ولاسيما حين تصدر من الكويت حيث لا يفوقها من حيث نسبة عدد الأطباء إلى عدد السكان ، إلا قلة ضئيلة من دول العالم . . .

إن المرء يجب عليه وجوباً أن يجرى إلى الطبيب فى كل ما يصيبه صغر أو كبر ، لأن المرض عملية تتطور باستمرار ، ولا تثبت على حال . والصغير فيها قد يكبر ، والقليل منها قد يزداد ، والصغائر فيها كثيراً ما تتحول إلى كبائر ، والزغب الذى يكسو فراخ الأمراض سرعان ما يتحول إلى ريش ، بل إلى سهام كسهام المنون .

بل فوق ذلك فإن الإنسان لا يجوز أن ينتظر حتى يمرض ثم يعرض نفسه على الطبيب . إن عليه أن يتعامل مع الطبيب حتى وهو سليم ، فإن المرض كثيراً ما يظل كامنا فى الجسم لا يعلن عن نفسه ، إلا إذا ثبت جذوره ، وأرسى قواعده على قرار مكين . وحين يبدأ المرض فى الإعلان عن نفسه بالإعراض والنذر ، فكثيراً ما يكون قد تجاوز الطاقات الحالية لمعارف العلم وجهود الأطباء ، وأصبح يستعصى على كل علاج ، إلا علاج الأعراض ، وما أبخسها من غاية وما أتعسه من علاج !

إن الطب لسوء الحظ لا يعرف العلاج الحاسم عادة إلا للأمراض التى تكتشف فى أوائلها ، أما إذا أزمنت وتغلغلت فى الجسم فإن الطبيب

كثيراً ما يقف أمامها كالأبله .

إن العيب الأزلى فى تطبيق الطب فى الشرق كله ، ويبدو أنه عيب خالد ، أن نهمل الصغائر حتى تتحول إلى كبائر . ولو تعودنا أن نزور الطبيب بين الحين والحين — حتى ونحن أصحاء — لضمنا أن نكتشف أمراضنا الظاهرة والخفية فى وقت مبكر ، وأن نعالجها وعلاجها من أسهل الأمور على الطبيب .

إن هذا هو الطب فى العصر الحاضر ، والإدارات الصحية الرشيدة هى التى تبحث عن المرضى بين الأصحاء ، ولا تنتظر حتى يأتوا هم على أرجلهم إلى الطبيب بعد فوات الأوان . . . وكل طب عدا ذلك قصور من جانب الإدارات الصحية ، وجهالة من جانب المرضى ، و . . . و . . . و . . . ربى ماذا أقول ؟ . . . لأقلها بصراحة وأمرى إلى الله . . . وقلة تربية علمية من جانب الأطباء !



٣٠

خدعوك فقالوا :
إن الروماتزم ينشأ من الأملاح !

أهم وظائف الكلية أن تنفض من الدم مالا حاجة للجسم إليه من بقايا الطعام المهضوم ، وهى تقوم بهذا العمل بوساطة ملايين من المرشحات الدقيقة الفذة ، ترشح مع البول ما زاد من هذه البقايا على معدل معلوم .

وليست الأملاح التى يتردد اسمها على أفواه المرضى والأطباء إلا أنواعاً من هذه البقايا ، توجد فى البول على الدوام ، ومنها ما يعطيه رائحته المعروفة ومنها ما يسبغ عليه لونه الخاص .

وزيادة هذه البقايا فى البول إذا كانت الكلى سليمة لا تدل على مرض ، وقلتها فيه ليست معياراً للصحة ، فمقدارها إنما يتوقف — عند سلامة الكلى — على نوع الطعام الذى تأكله ، وعلى مقدار غناه أوفقره إلى هذه المواد .. والحكم على الجسم بالمرض لوجود أملاح فى البول يشبه الحكم على مدينة بالقذارة لأن لها مقلباً للزبالة !

بيد أن هذه البقايا قد يكون لها مدلولها على الصحة والمرض إذا قيست فى الدم وكان معدلها فيه أعلى كثيراً من الحد المألوف . . وهو شىء لا يحدث عادة إلا وفى الكلية آفة تعوقها عن نفض ما كان ينبغى أن تنفضه من هذه الفضول ، أو فى جهاز الهضم عيب يراكم هذه

البقايا فى الدم إلى حد يعيى طاقة الكلية ونشاطها المحدود .

وهى إن تراكمت فى الدم — لأى السببين — فقد تحدث أمراضاً ليس الروماتزم من بينها على أية حال .

لقد يحدث مرض النقرس ، وهو وجع مؤلم يبدأ عادة فى المفصل الأكبر لإبهام القدم ، وأكثر ضحاياه من أصحاب البطنة الفاجرة ، والماضى المشرف فى التهام اللحوم ، ومن أجل ذلك سمى بداء الملوك!

وقد تؤدى إلى التسمم البولى المعروف وهو مرض قاتل ينشأ عندما تشل قدرة الكلية وتعجز مرشحاتها عجزاً تامًّا عن إخراج هذه الفضول .

أما الروماتزم فرض قائم بذاته ،وهو عدوى « بميكروب» خاص هو الذى يسبب التهاب اللوزتين وبعض خراريج الأسنان ، ولبعض الناس حساسية مرهفة خاصة لهذا الميكروب ، تسبب الروماتزم .

وليس كل ألم فى المفصل روماتزماً ، فالروماتزم له صورة محدودة هى صورة التورم فى مفصل أو أكثر وانسكاب السوائل فيه ، والوجع الهائل ، وانتقال هذه الأعراض من مفصل إلى آخر ، مع حمى تصيب المريض ، ومضاعفات فى القلب يعيا تحتها عن أداء بعض عمله الهام .

إنما تنشأ آلام المفاصل عادة — عندما تسلم هذه المفاصل من مثل هذه الآفات الخاصة — من وجود بؤرة « ميكروبات » فى مكان ما بالجسم تفرز سمومها فى الدم ، ويخفى وجودها على إدراك المريض ، وقد يخفى كذلك على فطنة الطبيب .

فوجود خرّاج مُضمر تحت سن من الأسنان ، أو التقيح المزمن في إحدى اللوزتين أوكلتيهما أو في الكهوف العظمية بالجمجمة ، أو السيلان المزمن في الجهاز التناسلي للرجل والمرأة أو الإمساك المستعصي — كل هذا أو مثله خليق أن يدفع إلى الدم بفيض من سموم « الميكروبات » لا ينتهي ، يؤذي المفاصل الرقيقة وسواها من الأعضاء والأحشاء .

وقد تنشأ آلام المفاصل كذلك من البدانة ، فإن المفاصل أشبه ما تكون « بالونشات » لا تقوى على أكثر من حمولة معينة . . .أو من نقص بعض عناصر الغذاء الكامل في الطعام كالحديد مثلا وكبعض الفيتامينات الموجودة في البرتقال والليمون ومن هنا نشأت عقيدة العامة في علاج هذه الآلام بشرب عصير الليمون عدة أيام — وبطريقة خاصة — وعلى الريق !

أما الأملاح فخرافة ضخمة وهي بقية من بقايا القرون الوسطى ، وقصور العلم فيها عن تعليل كثير من خواص الصحة والمرض في الإنسان. وكثيراً ما يلجأ الطبيب إلى تشخيص علة مريضه بالأملاح ليخرج من مأزق الجهل بالتشخيص الصحيح . وثمة قلة من الأطباء العارفين يضطرون اضطراراً للانسياق مع التيار ، ومجاراة المرضى الذين رسخت في نفوسهم جذور هذه الخرافة ، فيعالجونهم من المرض الجاني عليهم ، ويزعمون لهم كارهين أنهم يعالجونهم من الأملاح !

لا تنخدع بعد اليوم بقصة الأملاح فإنها أسطورة خرافية ، والعلم لا يعترف بها الآن ، وليس لها في سجلاته اسم ولا عنوان ، وإذا

عزا الطبيب مرضه إليها ، فالجأ إلى طبيب سواه يعرف مغانم الطب من معارف القرن العشرين ، ووفر لنفسك منذ اليوم المال الذى تدفعه لمعامل التحليل — مع بول ٢٤ ساعة ! — لاكتشاف الأملاح ! !



٣١

يخدعوك فقالوا :

إن الحمى الروماتزمية تنشأ عن « فيروس »

ما أقل المعارف عن الحمى الروماتزمية ! وما أكثر المجاهيل ! وما أضيق الحقائق فيها ! وما أشد ما تبهم الأباطيل ! إن من المعارف الشبيهة بالحقائق عن الحمى الروماتزمية مثلا أنها فى حوالى ٨٦ ٪ من حالاتها تبدأ فى أعقاب عدوى بفصيلة معينة من فصائل « الميكروب » السبحى الذى يؤدى كذلك للحمى القرمزية وحمى النفاس والحمرة ، وبعض حالات التهاب الأذن والرئتين ؛ ولكل من هذه الأمراض شهرته وخطورته وشيوعه فى بعض الظروف وبعض الأوقات ، غير أن الـ ١٤ ٪ الباقية من حالات الحمى الروماتزمية ، والتى لم تسبقها إصابة سافرة « بالميكروب » السبحى ، ألقت ظلاً على هذه الحمى من حيث أصلها ونشأتها ، واحتمال حدوثها من عدوى « فيروس » خاص . و « الفيروسات » جراثيم أصغر كثيراً من « الميكروبات » ولها طابعها الخاص ، من حيث العدوى ، والمناعة عليها ، ومدى قابليتها للعلاج بالأدوية والعقاقير ، وسلوكها فى المختبر وفى البيئة وفى الإنسان ، ومن أمثلتها « فيروسات » الحماق والجدرى ، والحصبة وشلل الأطفال والزكام ؛ وقد كنت أظن هذه النظرية ولدت ميتة ، ولكنى وجدتها تنشر فى « يوميات طبيب » بجريدة الأخبار الغراء ، وإن كانت فى شحوب الأموات . ولنبدأ القصة من أولها .

استهداف

قلت إن ٨٦ ٪ من حالات الحمى الروماتزمية تأتى فى أعقاب عدوى « بالميكروب» السبحى ، بيد أن الحمى لا تأتى فى أعقاب هذه العدوى مباشرة ، ولكن بعدها بفترة من الزمن تكاد تكون ثابتة فى تراوحها بين الأسبوعين والثلاثة الأسابيع (بمتوسط ١٨ يوماً) . وقد فتح هذا باب الاحتمال لوجود مواد خاصة فى هذا النوع من « الميكروب » السبحى ، تلذع أجسام بعض المصابين ، فتستجيب هذه الأجسام للذعها بثورة غضب ، من مظاهرها الحمى والآلام المتنقلة فى المفاصل ، والتهاب القلب وتضخمه وظهور اللغط فيه ، وما إلى ذلك من أعراض الحمى الروماتزمية التى تختلف تصانيفها باختلاف الأفراد ؛ أى أن هذه المواد أشبه ما تكون بالمواد التى تحدث فرط الحساسية فى بعض الأشخاص فيستجيبون لها بالربو تارة أو بالشرى « الأرتكاريا » تارة أخرى ، أو بالإسهال .

أهو صنف بذاته من الناس ؟

وأكثر من تحدث فيهم الحمى الروماتزمية هم أكثر الناس إصابة بعدوى « الميكروبات» السبحية ؛ وهم الطبقات الفقيرة ، التى يغلب عليها شظف العيش ، ونقص التغذية ، والعادات الخاطئة ، وسوء المسكن ورطوبته ، وازدحامه بالسكان ،وكثرة أفراد الأسرة الواحدة،

وما يؤدى إليه ضيق الحال فى هذه الظروف من توزيع اللقمة بين عدة أفواه ، وتوزيع الغرفة بين عدة سكان ، وتوزيع تراب المكانس بين الجميع بالعدل والقسطاس . إن « الميكروب» السبحى «ميكروب» شديد المقاومة نسبيا للهواء والجفاف ، فهو يستطيع أن يعيش فى هذه البيئات زمناً أطول فى الهواء ، والتراب ، وعلى الأغطية والفراش وثياب المريض ، بعد أن يخرج من حلق المريض أو حامل الجراثيم فى السعال والعطاس . وبنفس قوة انتشار « الميكروبات» السبحية فى هذه الأوساط الفقيرة ، يكون انتشار الحمى الروماتزمية فى هذه الأوساط .

تصريح جرىء

على أن الحمى الروماتزمية وإن كثرت فى البيئات ذات الوسائل المحدودة ، فهى ليست غريبة على البيئات الأسعد منها حالا ، والأصح مسكناً ، والأطيب عادات ، والأوفر غذاء . فالمسألة إذن ليست مسألة بيئة وحسب ، ولكن فيها عاملا آخر يجعل سكان القصور يتقاسمون المرض مع سكان الأكواخ ، وإن كان حظهم منه أقل من حظ الآخرين . لقد لوحظ أن الآباء إذا كانوا من ضحايا الحمى الروماتزمية فإن احتمال إصابة الأبناء بالمرض يكون أكبر من احتمال الإصابة فى لداتهم الذين ولدوا من آباء أصحاء ؛ كما لوحظ أنه إذا كان الأبوان الاثنان مصابين بالروماتزم (وليس كل ألم فى المفاصل روماتزما)

فالأغلب أن يستهدف عدد كبير من أولادهم للحمى الروماتزمية ، فى أعقاب العدوى « بالميكروب» السبحى الخاص ، سواء أكانت التهاباً فى اللوزتين أو دحاساً فى الأصابع ، أو ما إلى ذلك من التهابات . ولا تجد هذه الملاحظات تعليلا لها إلا فى قوانين الوراثة ، ومن أجل ذلك أدهشنى أن أسمع فى التليفزيون ذات ليلة أحد الزملاء الأطباء يرد على سؤال عن الحمى الرماتزمية ، وهل تلعب الوراثة فيها دوراً ؟ فينفى أى دور للوراثة فى هذا الصدد ؛ وهو تصريح أقل ما يقال فيه إنه تصريح جرىء !

« الفيروس » لا يستجيب لعلاج السلفا والبنسلين

قلنا إن ٨٦ ٪ فى حالات الحمى الروماتزمية تأتى فى أعقاب عدوى « بالميكروب» السبحى تسبقها بعدة أيام . وإن هذه الحمى تكثر حيث تكثر هذه العدوى ، وإن الوراثة تمهد الطريق لاختيار المصابين ، وإن ١٤ ٪ من المصابين لا يصابون بعدوى سافرة « بالميكروبات» السبحية . وأقول « سافرة » لأن من المحتمل جداً أن تكون العدوى فى حد ذاتها خفية ، يستطيع الجسم أن ينغلب عليها ، ويدفع أذاها المباشر ، كما يحدث فى كثير من عدوى الأمراض الأخرى ، ولكنه لا يستطيع أن يهرب من جزىء « الميكروب» الذى يؤدى إلى استثارة

الأنسجة فى الأشخاص المفرطى الحساسية ، لهذا الجزىء من «الميكروب».

يبقى بعد ذلك أن نقول إن كل حالات الحمى الروماتزمية ، فى نوباتها المتتالية ، يمكن توقيها مائة فى المائة إذا أعطى المريض « بالميكروب » السبحى علاجاً كافياً بالسلفا والبنسلين ، وتلك قاعدة بلا استثناء . ولا يوجد « فيروس » واحد يمكن توقيه بهذا الأسلوب « فالفيروسات » تهزأ بالسلفا والبنسلين عادة وبسواهما من مضادات الجراثيم ، والذى يستخلص من ذلك أن الحمى الروماتزمية بنت من بنات « الميكروب » السبحى ولا تربطها « بالفيروسات » أية آصرة من أواصر النسب بأى حال من الأحوال .

الطريق الأسهل

والطريق الأسهل لتوقى نوبات الحمى الروماتزمية فى الأشخاص الذين أصيبوا بها هو أخذ حقنة من حقن البنسلين الطويل المدى كل خمسة عشر يوما لقطع دابر «الميكروبات» السبحية كلما خطر لها أن تدخل الجسم خفية أو علانية . وأن يستمر ذلك طوال خمس سنوات . أما استئصال اللوزتين فقلما يفيد لأن « الميكروب » السبحى يمكن أن يصيب الحلق بعد الاستئصال . بل لعل إصابته فى هذه الحالة تكون أشد منها قبل الاستئصال وأسوأ ما فى هذا الاستئصال أنه ضمان زائف لأمان مكذوب !

٣٢

خدعوك فقالوا :

إن البصل يقى من العدوى

كان البشر منذ عهد بعيد يعرفون العدوى ، ولكنهم يجهلون كيف تنشأ ، فقد ظلت «الميكروبات» سرًّا مغلقاً من أسرار الطبيعة ، لم يقهرها على البوح به إلا باستير وكوخ وسواهما من أفذاذ العلماء فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر .

وكان هذا الجهل بمنشأ العدوى يفسح الطريق لنظريات عديدة لتعليل العدوى ، تحتل كل منها مكان الصدارة فى عقول البشر حيناً من الزمن ثم تموت .

عزيت الأوبئة فى البداية إلى غضب الآلهة ، ثم إلى نقمة الشياطين ، ثم إلى فعل السحرة ، ثم إلى الروائح الكريهة التى تتصعد من المستنقعات ومن مجامع الأقذار .

وباسم النظرية الأخيرة سميت الأمراض الوبائية بالأمراض «العفنة» ولايزال هذا الاسم يتردد على أفواه العوام حتى الآن عندما يتكلمون عن مستشفى الحميات .. وباسمها سميت الكوليرا بالهواء الأصفر ، وسميت الملاريا باسمها هذا وهو يعنى باللاتينية « الهواء الردىء » .

وباسم هذه النظرية كذلك راح الناس يستعينون على الروائح الكريهة بروائح أقوى منها دفعاً للأوبئة ووقاية من العدوى ، ووجدوا فى البصل

رائحة قوية نفاذة فاتخذوه دريئة من الأمراض .

لقد ماتت هذه النظريات كلها بطبيعة الحال فى ضوء العلم الحديث ، ولكن بقاياها الخرافية ما زالت — حيث ينتشر الجهل وتشح أنوار الثقافة — تملأ عقول الجهلاء .

فقدرة الآلهة على دفع المرض ما برحت ماثلة فى أضرحة الأولياء ..

والشياطين مازالت كودية الزار تخرجها حتى اليوم بوسائل شتى من جسم المريض « الملبوس » !

والسحر والسحرة ما فتئ المؤمنون بهما أكثر من المؤمنين بالطب والطبيب ! ..فأى عجب فى أن نرى البصل والتبغ يستعان بهما حتى اليوم كلما دخل السليم على مريض ! ؟

كل قنطاراً من البصل ، ودخن مائة سيجارة ، وادخل على مريض الحصبة مثلا أو الأنفلونزا ، فلن يغنيك هذا كله عن العدوى إذا لم تكن لديك مناعة ضد هذه الجراثيم .

يحتج كثير من العامة على انتفاء العدوى بقول النبى صلى الله عليه وسلم « لا عدوى ولا طيرة » . وشأنهم فى هذا شأن المحتج بقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة » . فبقية الآية الكريمة « « .. وأنتم سكارى » و بقية الحديث الشريف « .. وفر من المجذوم فرارك من الأسد ! »

إن العدوى ليست شيئاً محتوماً ، أو ضربة لازب كما يقولون ؛ إن لها شروطاً عديدة من ضراوة « الميكروب » ومن حصانة المخالط للمريض ، إلى غير ذلك ، ومالم تتوافر هذه الشروط لا تكون العدوى ،

ولعل هذا هو المقصود بصدر الحديث الشريف « لا عدوى .. » أى ليست العدوى حتماً محتوماً ، وإذا توافرت هذه الشروط فهيهات أن تنجو من العدوى ولو كنت فى برج مشيد من رؤوس البصل والثوم ومن أرقى أنواع التبغ والسيجار !!



٣٣

خدعوك فقالوا :

إن الكحول مطهر فعال

التطهير هو قتل جراثيم البكتريا والفيروسات المسببة للأمراض وإبادة البذور المدرعة التى تجعل لبعض هذه الجراثيم قدرة على إحاطة نفسها بها ، لتحميها من قسوة البيئة ومن سوء الظروف. وقد يرتقى التطهير إلى مرتبة التعقيم حين يقتل كافة الجراثيم — الضار منها وغير الضار — فى وسط من الأوساط .

وقد يهبط إلى مرتبة تعويق الجراثيم عن النمو ، دون أن يجهز عليها ، بحيث لو زال فعل المعوق لبدأت هذه الجراثيم تعيد سيرتها فى التكاثر ، والتضرى وارتكاب الآثام من جديد .

بعض من كل

ومن أمثلة التطهير استعمال الكى أو الغلى الكافى لتطهير الملابس وتطهير ماء الشرب المرشح بغاز الكلور ، وتطهير الجلد بصبغة اليود ، أو محلول الميركروكروم ، ولاسيما حين يذاب فى الكحول .

ومن أمثلة تعويق تكاثر الجراثيم وضع اللبن المبسطر أو المغلى فى الثلاجة بعد معالجته بالحرارة ، لحين استهلاكه ، لمنع تكاثر البقية الباقية من الجراثيم فيه ، لأن البرودة تمنع تكاثر الجراثيم وإن كانت لا تقضى عليها القضاء الأخير .

ومن أمثلة التعقيم تعقيم الأدوات الجراحية ، والمحاقن ، وضمادات الجروح وثياب المرضى بالبخار المضغوط القادر على إبادة الحياة الجرثومية تماماً ، فى كافة الصور والأشكال .

ومن أمثلته كذلك تعقيم اللبن برفع درجة حرارته إلى ذورة عالية تحت ظروف تسمح بإبادة الجراثيم جميعاً ، دون إضرار مذكور بالعناصر الغذائية فيه ، وهى عملية تختلف تماماً عن بسطرة اللبن التى لا تقضى إلا على الجراثيم الضارة . . واللبن المعقم يستعمل فى كثير من البلاد ، ومنها العراق ، ولا تحتاج زجاجات اللبن المعقم لوضعها فى الثلاجة ، لأن التعقيم قضى على كافة صور الجراثيم فيه .

أين الكحول من هذه المراتب الثلاث ؟

وموقف الكحول من هذه المراتب الثلاث من مراتب التطهير هو موقف المعوق لنمو الجراثيم .

ولكنه أحسن من لا شىء .

إنه شرطى . . لا جلاد !

ولقد يمكن أن يقال بوجه عام إنه أدنى من كل مطهر للجروح ، ولكنه أحسن من لا شىء .

إنه فى تطهير الأيدى أقل من كل مطهر آخر — حتى الماء والصابون اللذين يزيلان الجراثيم إزالة — ولكنه مع ذلك أحسن من لا شىء .

وهو فى تطهير الترمومترات — مقاييس الحرارة — أقل من كل شىء ومع ذلك فهو أحسن على نفس المنوال من لا شىء .

وَالخير فى هذه الأحوال الثلاث التى اشتهر الكحول فيها كمطهر ، أن يسبق استعماله على الدوام ، استعمال الماء والصابون لطرد أكثر الجراثيم من الجلد الجريح ، ومن الأيدى الملوثة بفضول الأنوف والأمعاء ومن أسطح الترمومترات المستعملة فى جس حرارة المرضى بوضعها فى الأفواه ، أو فى مخارج الأمعاء.

عكاكيز أخرى للكحول

ثم إن الكحول فى كافة هذه الأحوال يجب ألا يكون نقياً مائة فى المائة ، إذ أنه أقوى ما يكون فعلا من هذه الناحية حين يكون فى درجة سبعين فى المائة ، أى يختلط بثلاثين فى المائة من حجمه بالماء .

وإذا أضيف إليه واحد فى المائة من حمض من الأحماض زادت قدرته على التطهير ..

وإذا رشح الكحول التجارى المستعمل فى البيت بقمع وورقة ترشيح زالت منه أكثر ية الجراثيم وكل بذور الجراثيم التى تكون قد علقت به وبقيت حية فيه .

اعتراض

ولقد يقال مادام الأمر كذلك ، فلم إذن يطهر الأطباء بالكحول جلد « الزبون » قبل حقنه بالدواء ؟ ... وهو اعتراض وجيه . ولكن الواقع فيه أن قطعة القطن المبللة بالكحول التى يدعك بها الطبيب جلد

المريض دعكاً تزيل من فوق الجلد كثيراً من الطبقة المشحونة بالجراثيم ، كما لو كان قد غسل بالماء والصابون. ولقد يمكن رؤية الأثر الذى يحدثه دعك الجلد بقطعة القطن المبللة بالكحول إذا أجريت العملية على جلد قذر لم يغسل بالماء والصابون منذ حين .. إن قطعة القطن تصبح فى هذه الحالة أوسخ من عرض إبليس ، وتبدو البقعة من الجلد التى نظفت بهذه الطريقة فى وسط سائر الجلد المكفهر بالأقذار كأنها واحة فى وسط الصحراء !

والخلاصة أن الكحول قد يستعمل للتطهير أحياناً ولكن حين لا يوجد مطهر سواه ..

وأن عكا كيز التخفيف والتحميض والترشيح وإضافة مطهرات أخرى إليه كاليود أو الميركروكروم قد تساعده على الوقوف بلا خجل بين الصف الأخير من المطهرات .

وأنه حين يستعمل كمطهر فلا يجوز أن نطالبه بالمستحيل وهو تعقيم مكان الاستعمال ، فإذا حدث بعد ذلك فى هذا المكان ما لا يحمد ، فلنلم أنفسنا قبل أن نلوم الكحول « الغلبان » !



٣٤

خدعوك فقالوا :

مصل .. أو .. لقاح !

ليس للكوليرا « مصل » واق منها ، وإنما لها « لقاح » أو طعم ؛ وقد يبدو هذا لأول وهلة تلاعباً بالألفاظ ، ولكن الواقع أن اللقاح والمصل يختلفان اختلاف الفحم والخشب ... كلاهما يحدث ناراً ، ولكن نار الفحم أبقى ، ونار الخشب أسرع . وكذلك اللقاح والمصل : كلاهما يحدث مناعة ، ولكن مناعة اللقاح أبقى وأدوم ، ومناعة المصل أيسر وأسرع فى الظهور .

تعزى المناعة إلى تكون أجسام خاصة فى الدم تقاوم « ميكروباً » بعينه عندما يقتحم الجسم البشرى هذا « الميكروب » ويعيش زمناً فيه . ولو استطعنا أن نشبه « الميكروب » الغازى بوحش لكانت هذه الأجسام لهذا الوحش كالكمامات تدفع أذاه.

وهذه الأجسام أكثر ما تتكون عندما يصاب الإنسان بمرض معد ثم يبرأ منه ، فإن عدد الكمامات التى يصنعها الجسم عندئذ تكون أضعاف أضعاف عدد الوحوش ، وبمقدار ما يبقى منها فى الدم يكون طول المناعة على المرض وقوتها بعد الشفاء .

فبعض الأمراض المعدية تحدث « جراثيمها » مناعة دائمة بعد الشفاء قد تبقى بقاء الحياة ، وبعضها يحدث مناعة ضعيفة كالكوليرا التى لا تستمر المناعة عليها بعد الشفاء منها أكثر من عام .

والأصل فى اللقاح أنه تقليد ومحاكاة للمرض ، يطعم المرء فيه بمقادير معينة من « الجراثيم » أو سمومها ، بعد تقليم أظفارها ، وإضعاف ضراوتها ، أو قتلها قتلا ، حتى تحدث المناعة دون أن تقوى على إحداث الداء .

وبديهى أن عدد الكمامات التى تبقى فى الدم فى هذه الحالة بعد تكميم « الجراثيم » أو السموم المطعمة ، هو عدد محدود، وبمقدار هذا العدد الباقى من الكمامات تكون المناعة الحادثة من حيث القوة والدوام . فبعض اللقاحات الواقية — كلقاح الجدرى مثلا — يحدث مناعة قد تدوم خمس سنوات أو أكثر . وبعضها — كلقاح الكوليرا — لا تدوم المناعة التى يحدثها أكثر من ستة أشهر .

وصنع هذه الكمامات فى الجسم يتطلب وقتاً ، فلا تحسب أنك عندما تأخذ اللقاح الواقى من الكوليرا تكتب صكًّا على القدر ألا تصاب ... فخذ اللقاح عندما يتيسر ، ولكن لا تهمل فى وقاية طعامك من الميكروب.

أما المصل فشىء آخر .. هو كمامات مصنوعة خارج الجسم ، يتخذ الحيوان معملا لصنعها ، فيحقن الحيوان باللقاح الواقى بجرعات تتزايد مع الزمن حتى يصبح الحيوان قادراً على مقاومة « الميكروب » الحى نفسه ، ثم يستنزف بعض دم هذا الحيوان ، ويفصل منه المصل الحاوى للكمامات الواقية ، ويعطى الإنسان هذا المصل كدواء محضر ، وأكثر ما يستعمل فى علاج بعض الأمراض كالدفتريا والتتانوس ، ويستعمل فى الوقاية من هذه الأمراض نفسها عندما تنشد المناعة السريعة لتوقع

الخطر المفاجئ، ولكن المناعة الحادثة حينئذ تكون قصيرة العمر ولا تدوم أكثر من بضعة أسابيع .

ومثل هذا المصل الواقى لا ينجع لسوء الحظ فى أكثر الأمراض المعدية ، وقد صنع للكوليرا مصل واق ولكن لم تثبت له فائدة حتى الآن .

فلا تعد إلى ذكر المصل الواقى من الكوليرا إذن ، فهو شىء يكاد يكون بلا قيمة ، ولا يكاد يكون له وجود .

ولا تركض فى الشارع كالمجنون باحثاً عن طبيب تتوسل إليه أن يحميك من الكوليرا باللقاح ، فسيأتيك هذا اللقاح إلى الباب عندما ترى الصحة أنك مهدد تهديداً حقيقياً بالوباء . فلا داعى للذعر فى غير موطنه ، ولا داعى للحاجة والإلحاح فى طلب اللقاح، إنك تستطيع أن تتوقى الكوليرا بسهولة إذا كنت أنت ، وطاهيك وبيتك مثالا للنظافة فى الطعام والشراب ، ولم تكن « زمراماً » تريد كالطفل — أن تأكل من كل ما تقع عليه عينك فى الطريق !!



٣٥

خدعوك فقالوا :

مصل الحصبة

كما أن الجمل ليس له منقار ، والحمامة ليس لها قتب ، فإن الحصبة كذلك ليس لها مصل ، برغم ما تقرؤه عن هذ المصل الوهمى فى الصحف بين الحين والحين !!

إن الحصبة لها « لقاح » واق ، وهو اللقاح الذى تنتوى وزارة الصحة تطعيم كل طفل به فى الشهر التاسع من عمره ، لحمايته من مرض الحصبة ومن مضاعفاتها السافلة ، التى تلهب رئتيه أحياناً ، وتلهب أمعاءه أحياناً أخرى ، وقد تلهب الأذن والمخ فى بعض الأحيان ، ولكل من هذه المضاعفات خطورة على حياة الطفل ، أو على مستقبل هذه الحياة .

ولقد يهون هذا الخطأ الشائع إذا سمعناه من رجل الشارع الذى يحتاج إلى التفريق بين الألف والمئذنة إلى تلسكوب ، وقد يهون إذا سمعناه من صحفى يخشى إذا حقق ودقق فى كل كلمة يقولها أن يسرقه الوقت ويفوته القطار .. ولكن الذى لا أفهمه ولا أستسيغه بحال أن يتحدث عن « مصل الحصبة » أستاذ جامعى فى الطب ، فى برنامج تليفزيونى مفيد عن الأمراض التى يتحتم علينا أن نحمى من غوائلها الأطفال .

نعم ... إنها قد تكون عثرة لسان ، وقد تكون محاولة للنزول إلى

مستوى الخطأ الشائع الذى يدركه السامعون . ولكن يبقى بعد ذلك أن تكرار الخطأ على هذه الصورة وتثبيته فى الأذهان ، لا يليق من أستاذ ،

اللقاح جراثيم أو سموم

إن اللقاح جراثيم مقتولة ، أو مهذبة ، أو سموم جراثيم عولجت بطريقة تكفكف من ضراوتها ، ثم تعطى هذه أو تلك للكائن البشرى فلا تحدث فيه مرضاً ، ولكنها مع ذلك تنبه جهاز المناعة فى الجسم ، وتدفعه إلى إفراز مقدار ضخم من الأجسام المضادة لهذا النوع أو ذاك بالذات ، من الجراثيم أو السموم ، فلا تكاد جرثومة أو سم منها يهاجم الجسم بعد ذلك حتى تنبرى له هذه «الترسانة» من الأجسام المضادة فتشل عمله وتمنع أذاه ، أو تقلل من هذا الأذى بحيث لا يؤدى إلى أية أضرار .

ويحتاج الجسم إلى بعض الوقت لإنتاج هذه الأجسام المضادة ، ولكنه حين يبدأ إنتاجها ينتجها بمقادير هائلة ، تشبه ما يفرز منها ، فى أثناء المرض بهذه الجراثيم أو السموم ، إذا أبل المريض من مرضه ، وتماثل للشفاء ، لذلك فإن المناعة التى تحدثها هذه اللقاحات تكون قوية الأثر عادة ويطول عمرها عدة سنين . وقد يبقى فعلها أحياناً ما بقيت الحياة .

انتصارات اللقاح

ومن السهل عن طريق هذه اللقاحات الواقية أن نتقى بعض الأمراض

اتقاء كاملا إذا عرفنا متى يعطى اللقاح ، ومتى يعزز بشيء من التنشيط .

والجدرى والدفتريا وشلل الأطفال من هذه الأمراض التى يمكن استئصالها من المجتمع تماماً ، إذا تم تلقيح الطفل وتحصيله عليها بناء على خطة موضوعة ، وفى المواعيد التى يقررها الطبيب .

وشبيه بهذه الأمراض مرض الحصبة ومرض السعال الديكى ومرض السل ومرض الكزاز المعروف بالتتانوس ، فإن لها كلها لقاحات واقية ، ثبت نفعها فى الوقاية من المرض ، أو تهذيبه على الأقل وتقليم أظفاره إذا جاء . ومن أجل ذلك ينصح الأطباء جميع الآباء بحماية أبنائهم من هذه الأمراض .. أو مما تحدثه من أفاعيل السوء ، بتحصينهم ضدها باللقاحات ، بل إن الأمر لم يعد فى بعض هذه الأمراض أمر نصائح ، ولكنه أصبح مفروضاً بحكم القانون ، يعاقب الآباء إذا قصروا فيه .

شىء من التاريخ

أما المصل فقد أصبح أو كاد يصبح من حيث توقى الأمراض — قصة من قصص التاريخ .

إن المصل هو الجزء السائل من دم حيوان عولج بلقاح ما حتى تكونت فى دمه أجسام مضادة للجرثومة أو السم الموجود فى هذا اللقاح . وحينما تقوى مناعة الحيوان على هذه الجرثومة الدخيلة أو سمها ، يستنزف

جزء من دم الحيوان ، ويستخلص مصله بما فيه من الأجسام المضادة ، وهو مقدار قليل منها بطبيعة الحال يتناسب مع مقدار الدم المستنزف وبعض هذه الأمصال يستعمل حتى اليوم فى علاج بعض الأمراض كالدفتريا والتتانوس . وكان بعضه يستعمل فى الوقاية من المرض تحت ظروف خاصة من التعرض للعدوى ولكن بعد أن عمم استعمال اللقاحات ، لم يعد لاستعمال هذه الأمصال فى الوقاية مكان .

وكثيراً ما كان المصل ينتهى إعطاؤه بكارثة لأن بعض الأجسام يكون مرهف الحساسية له بنوع خاص .

ثم إن المناعة التى كانت تحدثها هذه الأمصال لم تكن تطول أو تبقى فى الجسم لأكثر من أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ، ثم تفنى فناء الدخان فى الهواء .

وفوق هذا فإن عدد الأمراض التى كانت تتقى بهذه الوسيلة كانت أقل عدداً من أصابع اليد .

ولقد كانت المزية الوحيدة لها أنها كانت على قصر المناعة الحادثة منها ، تهب للمرء حصانة سريعة ضد عدوى حدثت فعلا بمرض من هذه الأمراض ، ولكن حتى هذه المزية أصبحت اللقاحات الأصيلة تفوقها فيها إذا أعطيت فى مواعيدها وبمقتضى النظام المرسوم ، بحيث لا تترك فرصة للحاجة إلى الحصانة السريعة التافهة التى كانت تحدث فى أعقاب حقن مصل من الأمصال .

أمصال لم يعد لها وجود

إن مصل التتانوس مثلا أصبح فى بعض البلاد الغربية قصة تروى عن شيء كان يستعمله « أهل زمان» !

فتحصين الأطفال بلقاح التتانوس ، وتلقيح الجنود فى الميدان ، فى فترات معينة ، قضى نهائياً على هذا المرض فى هذه الفئات ، كما قضى على أية حاجة لاستعمال مصل التتانوس سواء فى مجال الوقاية أو فى مجال العلاج .

ولقد أوشك الأمر فى الدفتريا أن يصبح كذلك فى هذه البلاد ..

وقد كان هذان المصلان أهم الأمصال المستعملة فى كفاح الأمراض .

أما غيرهما من الأمصال فقد تولى إلى ظلمات التاريخ منذ زمن طويل .

كن مثقفاً ..

تعود إذن أن تفكر تفكير المثقفين حين تفكر فى حماية طفلك من الأمراض باستعمال اللقاحات، ولا تفكر أبداً فى مصل الجدرى أو مصل الحصبة أو مصل الكلب أو مصل السل ، فإن هذه الأمصال لا وجود لها ، وهى بقية من بقايا المعلومات المنقرضة ، والأخطاء التى يتنزه عنها المثقفون .

إنها الحمام الذى له قتب ، والجمال التى لها منقار !

فتأمل قليلا فى الحمام الذى حولك . والجمال التى تراها سائرة فى الطريق . فإن وجدت للأولى قتباً ووجدت للثانية منقاراً كان للحصبة مصل مضاد !



٣٦

خدعوك فقالوا :

إن « الميكروبات » كلها أشرار

تقترن كلمة « الميكروبات » فى نفوسنا دائماً بشعور الخوف والجزع من الأوبئة والأمراض، ويبعث ذكرها فى قلوبنا رعباً غامضاً من فواجع القدر المجهول . ولا نكاد نذكر « ميكروبات » التيفويد أو الدفتريا ، أو السل ، وما تحصد من ضحايا كل عام ، حتى تقشعر أبداننا هلعاً من هول هذه الكائنات الخفية ، التى قد تكون واقفة لنا بالمرصاد على حافة كأس أو ثنايا لقمة أو ربما قبلة حلوة من شفاه نشوى بخمر الحب والربيع والشباب !

إن « الميكروبات » ليست كلها من هذا النوع المتمرد الشرير .. « فالميكروبات » الشريرة لا تعدو أن تكون قلة لا يعتد بها فى عالم ضخم من هذه الكائنات الدقيقة ، يعيش فى الهواء الذى نتنفسه ، وفى الماء الذى نحتسيه ، وفى القوت الذى نطعمه، وفى الأرض التى تطعمنا وتمدنا بالخير والنماء ... ويساهم بنصيب هائل فى خدمة الكائنات الحية جميعاً ، وحمايتها ، والتيسير لها فى أسباب الحياة.

إن البنسلين وأشباهه من العقاقير نعمة من نعم « الميكروبات » وقطعة الجبن، ومضغة الزبد كلها من آلاء « الميكروبات » ونشوة الكأس فضل على طلابها من أفضال « الميكروبات » .

إننا ننظر إلى حفنة من تراب حديقتنا فنخالها جماداً لا حياة فيه ، ولكن الواقع أن كل جرام واحد منها يموج بما لا يقل عن مائة مليون

من « الميكروبات » النافعة ، يضل بينها عدد تافه من « ميكروبات » الأمراض ، ولولا جهود هذه « الميكروبات » النافعة لما ترعرع نبت فى الأرض ، ولا تفتحت زهرة لطل السندى ، ولا أتيح القوت لحى من الأحياء ، ولأصبحت الأرض مستنقعاً هائلا للأكدار ، والأقذار .

إن هذه « الميكروبات » التى تزخر بها الطبقة السطحية من الأرض تقوم للمملكة الحيوانية ، بأمرها بدور « الزبالين » الذين لا يكتفون بجمع الزبالة والفضول والجيف المستحيلة ، وإنما يعالجونها كذلك بطرق تمنع أذاها ، وتحيلها من طبيعتها العفنة الكريهة إلى إكسير نافع يمد الأرض بالخصب ، ويمد السندى والزهر بالقوت والحياة ، وكل مزارع المجارى فى العالم ومعظم وسائل علاج القمامة إنما ينهض أكثرها على أكتاف هذه الميكروبات .فهى – وإن قامت للحيوان بدور الزبال– تقوم للنبات بدور الطاهى « والسفرجى » وموزع الطعام ! ... وهكذا تشرف « الميكروبات » على رعاية هذه الدورة الحيوية الخالدة التى تمثل فيها الأرض مصنعاً « لطوب البناء » يبنى منه جسم الحيوان . فيعيش ما شاء الله له أن يعيش ، ثم يموت ويبلى . فينتشر الطوب فى الأرض ، ويعاد صنعه ليدخل فى بناء النبات ، فينمو ويكبر ، ويؤتى ثمرة ويرد « الطوب » من جديد إلى مصنع الأرض فتبنى منه « الميكروبات » جسم الكائن الحى الوليد .

بل إن أجسامنا نفسها عامرة بملايين « الميكروبات » النافعة ، تقوم فى أمعائنا مقام الحرس . الساهر ليل نهار ، محاولا قدر استطاعته دفع ما يعتادها بين الحين والحين من « ميكروبات » الأمراض .

إن كان لنا بين « الميكروبات » أعداء ألداء فلنا منها بإزاء كل عدو واحد مئات من الأصدقاء الأوفياء ، ولو كان فى بنى آدم بمقدار ما فى « الميكروبات » من خير وشر لطابت الحياة .

٣٧

خدعوك فقالوا :

إن غلى اللبن لا يقتل الميكروبات

وحدة الهدف

إن غلى اللبن و بسطرته عمليتان يقصد بهما قتل الجراثيم المسببة للمرض فيه ، وكلتا العمليتين – وإن اختلفتا من الناحية الفنية – نتيجتهما واحدة من حيث الوصول إلى هذا الهدف المقصود والقضاء على جراثيم الأمراض التى تصل إلى اللبن من الحيوان الحلوب نفسه ، أو فم الحالب وأنفه فى أثناء العطاس والسعال ، أو يده حين يبصق فيها – لعنة الله عليه – وهو يستدر الحليب من ضرع الحيوان أو فى النهاية من البائع الغشاش الذى رأيناه يصلى الفجر حاضراً ، ثم يميل على أول ترعة تصادفه فى الطريق ، فيضيف إلى ما معه من اللبن ، مثله من الماء القذر الملوث بكثير من الجراثيم . ثم يحلف لك بالطلاق من زوجتيه الاثنتين أن لبنه حر لم يمسسه ماء !

قائمة خسائر

ولقد يفقد اللبن بالغلى و بالبسطرة بعض الفيتامينات الموجودة فيه ، وقد يختلف الأمر قليلا بين العمليتين فى هذا المجال . ولكن اللبن على أى حال لا يستمد أهميته فى الطعام من الفيتامينات التى توجد فيه بمقدار صغير ، وإنما يستمد أكثر هذه الأهمية من غناه بالمواد البروتينية النفيسة ، البانية للجسم ، والمرممة لأنسجته ، والمعوضة له عما يفقد من خلاياه .. ثم من نصيب اللبن العظيم من الأملاح المعدنية ، وفى مقدمتها الكلسيوم

الذى يعد من عناصر الغذاء الرئيسية ، والذى يعد اللبن من أهم وأوفر مصادره فى الطعام ... وكلا المواد البروتينية والأملاح المعدنية لا يتأثران إلا تأثراً طفيفاً بعمليتى تحرير اللبن من جراثيم الأمراض . فلئن كان اللبن يفقد جزءاً من هذا الفيتامين أو ذاك بالغلى أو بالبسطرة فأن الخسارة ليست ذات شأن يذكر ، وفى غير اللبن من الأغذية التى نقتات بها عوض عن الجزء الذى يضيع من الفيتامينات .

حقيقتان أخريان

هذه حقائق أولية خاصة بغلى اللبن أو بسطرته ، ومن الممكن أن يضاف إليها حقيقتان : الحقيقة الأولى أن الغلى هو العملية الأبسط ، والمقدور عليها فى كل بيت ، والمعروفة لكل أم على ضفاف النيل منذ فجر التاريخ .. إنها عملية بسيطة ، رخيصة ، زكاها الزمن ، وعرفتها حتى قليلات الحظ من الثقافة بين الأمهات . أما البسطرة وتلك هى الحقيقة الثانية فعملية معقدة تحتاج إلى معرفة فنية واسعة ، وإدراك علمى دقيق ، كما تحتاج بعد إتمامها إلى تبريد اللبن بعد بسطرته مباشرة والاحتفاظ به فى ثلاجة حتى لا تعود للقلة من الجراثيم التى داخت ولم تمت بالحرارة إلى التكاثر من جديد ، وإن هذه العملية إذا لم تتم حسب مواصفاتها المعروفة ، فإنها تعطى شعوراً زائفاً بالأمان ، وتصبح مصدراً لخطر لا يوجد منه فى غلى اللبن وتبريده إلا القليل ..

عجائب

هذه كلها حقائق بسيطة . ولكن إحدى شركات بسطرة اللبن

تحاول أن تهدم هذه الحقائق فى إعلان لها بالتلفزيون . فهى تزعم أولا أن غلى اللبن لا يقتل كل الميكروبات فيه .. وهذه أكذوبة ، فإن الغلى من هذه الناحية قد يكون أفضل من البسطرة فى بعض الأحيان ، خصوصاً إذا كانت البسطرة لا تستوفى كافة مستلزماتها ، وكان المبسطرون لا يخضعون للتفتيش الصحى كما يحدث فى كثير من الظروف . وهى تزعم ثانياً أن الغلى يضيع كافة الفيتامينات من اللبن ، وهى أكذوبة أخرى ، لأن الغلى لا يختلف عن البسطرة من هذه الناحية إلا اختلافاً طفيفاً لا يؤثر فى قيمة اللبن الغذائية بحال. بيد أن الأكذوبة الأخطر من هاتين ، هى القول بأن اللبن المبسطر مأمون على الدوام ، فإن اللبن المبسطر ما لم يوضع فى ثلاجة إلى أن يستعمل ، قد يصبح كالمأمن الذى يؤتى منه الحذر ، وهو شىء يعرفه بعض زبائن اللبن المبسطر!

هل الإعلان رب غفور

قد يقال إن الإعلان يباح فيه أحياناً مالا يباح ، وإنه يعفو عن كثير، ولكن من المؤكد أنه لا يعفو عن الكذب أو يتسامح فيه ، فإن الكذب ليس من مصلحة المعلن نفسه، والدقة العلمية يجب أن تتوافر للإعلان الحازم الرشيد . نعم إن من المستطاع أن تمط الحقيقة العلمية فى الإعلان بعض الشىء هنا ، أو تعصر بعض الشىء هناك ، ولكن بدون أن تختفى هذه الحقيقة أو تضيع ، أو تزهق روحها بحال .

الشمال التى لا تعرف عن اليمين

إن بالتليفزيون برنامجاً للتربية الصحية ولكن يبدو أن هذا البرنامج

الموجود فى طابق من بناء التليفزيون الشاهق ، وبرنامج الإعلانات الموجود فى طابق آخر ، والاتصال المنعدم تماماً بين الطابقين ، مثل شمال المؤمن التى لا تعرف شيئاً عما تتصدق به اليمين . أو مثل اللسان الذى يسبح بذكر الله بدون أن يدرك شيئاً عن اليد التى معه فى جسم واحد ، والتى تسرق ، أو تعتدى على الغير ، أو تضع لهم ماء الترعة الملوث فى الحليب !! ... إن برامج الإعلان فى التليفزيون تحتاج إلى عملية بسطرة حقيقية وليست كالبسطرة التى يرفض أصحابها الخضوع للتفتيش الصحى المفروض .

عصفور فى اليد

ولعل من الخير أن أهيب فى النهاية بالقراء أن يغلوا اللبن فى بيوتهم وأن يتركوه يغلى على نار هادئة ، بضع دقائق خصوصاً فى الصيف ، فإن فى ذلك أماناً حقيقيًّا ضد كافة الجراثيم المعدية التى قد يحملها اللبن الحليب إن الغلى عصفور فى يدنا وهو خير من العصافير العشرة التى على الشجرة والتى لا يمكن بحال التأكد من وجودها فى اللبن المبسطر غير الخاضع للرقابة الصحية فى كل الخطوات ، وكل الأوقات ..

٣٨

خدعوك فقالوا :

إنك مريض بالدوسنطاريا

الدوسنطاريا هى الإسهال المصحوب بالمغص ، المشوب بالدم والمخاط . وليست الدوسنطاريا مرضاً قائماً بذاته ، ولكنها سلسلة أعراض تنشأ من عدة أمراض يختلف بعضها عن بعض اختلافاً جوهرياً فى السبب ، وفى وسائل العدوى ، وفى طرق العلاج .

وشأن الدوسنطاريا من هذه الناحية شأن « الحمى » فالحمى ليست إلا ارتفاعاً فى درجة الحرارة ، سواء أكان سببه التهاباً بسيطاً فى اللوزتين ، أم تيفوداً فى الأمعاء ، أم دفتريا فى الحلق ، أم خراجاً فى العظام ...

إن هناك مائة سبب وسبباً للحمى ، أى ارتفاع درجة الحرارة ، كما أن ثمة أسباباً عديدة للدوسنطاريا ، التى ليست إلا مجموعة أعراض متشابهة ، لعدة أمراض يختلف بعضها عن بعض ، اختلاف الدفتريا والطاعون والملاريا والتيفود. فالدوسنطاريا الأميبية مثلا — التى تصيب معظم المصريين — مرض من أمراض القذارة و « الزمرمة » ينشره عدم غسل الأيدى قبل الطعام ، وترك الأطعمة للذباب يسرح عليها ويمرح كما يشاء وأكل الخضر « بعبلها » أى بدون غسلها بالماء الجارى والتأكد من زوال ما عليها من الأكدار .

ومثلها فى طرق العدوى ، وإن اختلف عنها تماماً فى وسائل العلاج ، الدوسنطاريا « الميكروبية » ، التى لا تنشأ عن ميكروب واحد ، ولكن من عدة « ميكروبات » يختلف بعضها عن بعض فى الضراوة والفتك وسرعة الاستسلام للعلاج .

ومن الدوسنطاريا ما يحدث من بلهارسيا الأمعاء التى تصيب أكثر من خمسين فى المائة من سكان شمال القطر لخوضهم فى الماء الملوث بأجنة هذه الديدان ، وهذا النوع – وإن تشابه وسواه فى الأعراض – يختلف عنه اختلافاً بيناً فى السبب والعدوى والعلاج .

ومنها ما ينشأ من الملاريا الخبيثة ، واكتظاظ الأوعية الشعرية فى الأمعاء بطفيليات هذا المرض الخطير .

بل إن من الدوسنطاريا ما تحدثه طفيليات أخرى بلا عدد ، بعضها من ذوات الأهداب ، وبعضها من ذوات الأذناب ..

هذه تنشأ من أكل السمك الذى لم يتم نضجه وتلك من تناول لحم الخنزير ... وثالثة من أكل الفسيخ الحلو ، إلى آخر ما هنالك من الوسائل والأسباب . وكما أننا لانقبل الآن كلمة الحمى كتشخيص لما نعانيه من سقام ، يجب كذلك ألا نقبل كلمة الدوسنطاريا دون أن نسأل عما وراءها من آلاف العلل والآلام .



٣٩

خدعوك فقالوا :
استؤصل المصران[1] الأعور

المصران الأعور لا يستأصل، فإنه جزء هام من الأمعاء ، يشاطرها كثيراً من الوظائف والأعباء ، وهو إذا التهب فشأنه شأن سائر الأمعاء ، ينفض العفن إلى الخارج ؛ ويعتل حيناً ثم يتماثل للشفاء ؛ إنما الذى يلتهب ، فيطغى ، فيهدد الحياة ، فيستأصل هو الزائدة الدودية ، وهى نتوء من المصران الأعور لا عمل له ولا وظيفة ، إلا أن يشعر ابن آدم أنه فى ريعان شبابه ، وعنفوان مجده.

إنه لا شىء إزاء قدر الله . وإن نسمة سارية من نسمات هذا القدر تستطيع أن تعصف به وبغروره وطموحه وتكالبه على الحياة .

وسمى المصران الأعور كذلك لأنه أشبه ما يكون بالزقاق المسدود بين الأمعاء الدقاق والأمعاء الغلاظ ، تصب الأولى فيه « ببوابة » وديدبان، وتخرج الثانية منه مخرجاً سهلا بلا باب ولا حراس ، ولكن مصب الأولى ومخرج الثانية فى جانب واحد من هذا الزقاق المسدود ...

وعلى مقربة من نهاية الزقاق فى الجانب الأيمن من أسفل البطن « عطفة » تتصل به ، وتتدلى منه ، هى الزائدة الدودية التى تشبه دودة الأرض ، وهى طلل من أطلال عضو قديم كان الإنسان يستعمله يوم كان يعيش على الأعشاب ، وقبل أن يتذوق اللحوم .

وعندما تلتهب الزائدة الدودية تنسد فتحتها فى المصران الأعور فلا يجد العفن المتراكم طريقه الى الخارج ، فيزدحم فى هذا الفراغ الضيق ، بما فيه من « ميكروبات » وصديد ، وتضيق به الزائدة الملتهبة بعد حين

---

(١) المصران : مفرده مصير ، وهى المعى .

—إذا لم يسعف المريض بالعلاج— فتنفجر داخل البطن ويعم التهابها الغشاء الجامع للأحشاء . والتهاب الزائدة الدودية مرض من أمراض الحضارة قلما يعرفه البدو البدائيون ، وهو فى الحضر أكثر منه فى الريف ، ومما يمهد له : الإفراط فى أكل اللحوم ، وطول الإمساك ، والتعجل فى تناول الطعام والبؤر المتقيحة فى الجسم — كاللوزتين مثلا — دون علاج ، والأذى كيفما كان ، يصيب منطقة المصران الأعور ، فيقفل الزائدة ويسدها ، فيجعلها أكثر عرضة للالتهاب .

أما التهاب الزائدة بما يصل إليها وينحشر فيها من حب العنب والجوافة والتين الشوكى وأمثالها ، فخرافة أخرى لم يؤيدها التحقيق .

وكثيراً ما تتشابه أعراض التهاب الزائدة الدودية بأعراض علل أخرى داخل الأحشاء ، كقرحة المعدة والتهاب المرارة ، والحمل خارج الرحم ، فتستأصل الزائدة عبثاً ، ولا يغنى عنها صراخها أنها بريئة والله العظيم !!

ومن أجل ذلك فإن الجراح الحازم عندما يريد استئصال الزائدة الدودية ، لا يجعل جرحه كالكوة الصغيرة فوق الزائدة رأساً ، لكى يرضى أنانية المريض — ولاسيما إذا كان سيدة تخشى على جمالها أن تشوهه الندوب ... وإنما يفتح فى البطن فتحة محترمة تسمح له أن يبحث عن المجرم الحقيقى ، ويقبض عليه إذا ثبتت له براءة الزائدة وظلم الاتهام .

وهو فى هذه الحالة يلائم بين حافتى الجرح بطريقة لا تترك منه بعد التئامه إلا خطاً لا تكاد تتبينه غير عين الباحث عن عيوب !! ..

ومثل هذا قد يحدث فى الدوسنطاريا الأميبية — ووطنها الأول هو المصران الأعور ؛ فقد تشبه أعراضها أعراض التهاب الزائدة المزمن ، فيشكو المريض من عسر الهضم والانتفاخ ولا يتهيأ التشخيص الحقيقى فى هذه الحالات بغير التحاليل المختلفة وتصوير الأمعاء .

ولقد شبه التهاب الزائدة المزمن بقنبلة تهدد صاحبها فى أى وقت بالانفجار ، ولكن تقدم الطب العلاجى فى الوقت الحاضر ، جعل هذه الحقيقة القديمة خرافة اخرى تضاف إلى الخرافات الكثيرة التى تتراكم كالقمامة فى زقاق المصران الأعور المسدود .



اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية ، تصدرها دار المعارف منذ علم ١٩٤٣ ، مساهمة منها فى نشر الثقافة والعلوم والمعرفة بين قراء العربية .

صدر خلالها وحتى الآن اكثر من ستمائة عدد لكبار الكُتاب منها :

١ - قنديل أم هاشم
يحيى حقى

٢ - أحلام شهر زاد
د . طه حسين

٣ - سنوحى
د . محمد عوض محمد

٤ - مهد العرب
عبد الوهاب عزام

٥ - من النافذة
إبراهيم عبد القادر المازنى .

٦ - سارة
عباس محمود العقاد

٧ - من ذكريات الفن والقضاء
توفيق الحكيم

٨ - النسيان
د . أحمد فؤاد الأهوانى

٩ - القرآن والتفسير العصرى
د . بنت الشاطىء

١٠ - مع الآخرين
أنيس منصور

١١ - مع العقاد
د . شوقى ضيف

١٢ - عجائب الأرض والسماء
د . محمد جمال الدين الفندى

١٣ - ٤٥ مشكلة حب
د . مصطفى محمود

١٤ - هؤلاء علمونى
سلامة موسى

١٥ - سندباد فى رحلة الحياة
د . حسين فوزى

١٦ - رسائل واسرار
محمد التابعى

رقم الإيداع	١٩٩٥/٥٦٠٨
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-4992-0

١/٩٥/٢٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

خدعوك فقالوا : إن العلم هو كل شىء
في نجاح الطبيب !
خدعوك فقالوا : إن الإنسان تحدر من
أصل قرد !
خدعوك فقالوا : إنه ليس لك إلا خَمس
حواس !
خدعوك فقالوا : إن كل ألم فى المفاصل
روماتزم !
خدعوك فقالوا : إن القلب ينبوع
العواطف !
خدعوك فقالوا : إن الدبابيس والإبر
تسرى فى الجسم مع الدم !
خدعوك فقالوا : إن الحصبة لا تصيب
إلا الأطفال !
فما هى الحقيقة إذن ؟ !
الإجابة داخل هذا الكتاب .



دار المعارف